شعبان منير

وإنْ كانتْ لا ترَاني

فريق متميزون
E-BOOK

ملهمون
للنشر والتوزيع
MOLHIMON

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

وإن كانت لا تراني

رواية..

الكاتب: شعبان منير

عن الرواية..

نعمان الدسوقي الكومي رجل سادي وفاسد، ينسب بنتًا غير شرعية إليه وهي "سلمى" .. عمياء أصابها العمى نتيجة ضمور في العصب البصري وهي بعدُ لم تبلغ الثامنة.

كانت أمها قد أنجبتها من علاقة غير شرعية انتقامًا من زوجها الذي خانها على مدار شهرين متتابعين...عانت سلمى الكثير وحرمت من الكثير لكنها كانت متفوقة دراسيًا وتعلمت الكثير من اللغات

تقع في حب شاب صحفي كان هدفه كشف فساد نعمان الدسوقي وتتوالى أحداث الرواية في إطار بوليسي وشيق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإهـداء:

الحمد لله.

إلى أبي- يرحمه الله- هذا الرجل الذي علَّمني الصبر، والكفاح والتضحية. والمسئولية.

إلى أمي- يحفظها الله- التي تحمّلتِ الكثير. وصبرتْ على المِحَنِ. جمعني الله وإيَّاها في أعلى جنات الخلد.

إلى الزوجة الحبيبة.التي تحمَّلت معي قسوة الحياة، ومرارة العيش.

إلى ابنَتَيَّ: حفصة وسلسبيل. عساهما تجدان فيما كتبت ما يحمل لهما الأمل، والسعادة.

إلى أختي الكريمة إيمان منير. دليلًا على المحبة، والوفاء، والثقة.

إلى كلٍّ من علَّمني، ووقف بجانبي، وتحمَّلني.

المؤلف/ شعبان منير

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كلمات خالدة

وَمَنْ يَتَهَيَّبْ صُعُودَ الْجِبَالِ

يَعِشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الْحُفَر

شاعر تونس العظيم "أبو القاسم الشّابِّي"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١-العمياء الحزينة أبدًا

استيقظت مع إشراقة يوم جديد، المفروض أن يحمل هذا اليوم أملًا، وحياة؛ لكنها أزاحت غطاءها في مللٍ واضح.

تمَطّت غير مبالية؛ لكنها أحسَّت إحساسًا مفاجئًا بالفرح غير المفهوم، لا تدري لماذا هاجمها هذا الهاجس؛ رغم جبال الحزن التي تحملها على كتفيها. على غير العادة تتَّجه إلى المرآة التي حُرِمَتْ من التطلع فيها منذ أن هاجمها هذا المرض الغامض الذي حرمها من أجمل نعمة يمكن أن تنعم بها. "نعمة البصر". لم تقصِّر أمها في تطبيبها، وتوجَّهت بها إلى العديد من أطباء الرمد؛ لكن الله -عزَّ وجلَّ- اختبرها في بصرها، وحرمها تلك النعمة. سألت ساعتها أمها: لماذا يا أمي لا أرى مثل بقية الناس؟! لماذا الظلام يملأ حياتي؟!

كانت الحيرة تملؤها، والظلام يهاجمها كوحشٍ يفترس عينيها البريئتين!

أسئلة لا تجد لها إجابات. كأنهم ألْقَوْهَا مكتوفة اليدين في بحر خِضَمّ، ويريدون لها أن تنْجُوَ من الغرق!

تمامًا كما يقول الشاعر([1]):

ألقاهُ في اليَمِّ مكتوفًا، وقال لَهُ إيّاكَ، إيَّاكَ أن تبتلَّ بالماءِ!

تنزل دموعٌ رقراقةٌ على خدّيْها، فتمسحها أمها. وهي تكتم دموعها، ويأسها من الشفاء!

تجيبها أمها "مها" في إشفاقٍ ظاهرٍ، وحُنُوٍّ بالغ: لقد ادَّخر الله لك قصرًا في الجنة يا حبيبة روحي. فلتصبري حتى تحصلي على هذا القصر جزاءً لكِ. وفي الجنة سوف تنعمين بالرياض الجميلة، والورود، والأزهار. وجميع النعم. ولا تنسَيْ، سأكون معك.

زادت الدنيا من همومها همًّا آخرَ. حين انتزع الموت أمها " مها" بعد أشهر من فقدها البصر بسبب: "ضمورٍ في العصبِ البصري"، حيث امتحنها القدر في أمها، واكتشفت الأمُّ إصابتها بأحد أنواع السرطان النادر. وأخبرها الأطباء بأن أيامها معدودة، ولم تنعم الأم بالحياة. فأنشبَ الموت أظفاره في جسدها النحيل، وماتت "مها" دون أن تَدَعَ ابنتها الوحيدة كي تودِّعَها! فقد كانت بعيدة عنها في هذا اليوم.

ذهبوا بها إلى القبور، وهي لا تفهم شيئًا، فلا بصرَ ولا فهمَ، وها هو الجسد المُسَجَّى على الأرض. يأخذ خالُها رفيقُ بيدها، فتتحسَّس الصندوق. كانت غير مستوعبة أن أمها ترقدُ هادئةً هانئةً وديعةً بداخله!

ارتمت على القبر تملؤها لوعة الفقد، ونار اليُتْم تحرقها. وتستعر في جسدها، ناجت أمها، فلا تردُّ عليها، لا تجد إلَّا رجع صوتها وصداه!

إن مرارة اليُتْم، والحرمان من الأم لا يفارقانها يومًا منذ أصابها العمى؛ لكن الدنيا تأبى إلّا أن تجمع عليها همًّا ثالثًا:

وكأنّ الفقيه (أبا بكر بن العربي) يعبِّر عن مأساتها الثلاثية أصدق تعبير:

وَلَوْ كَانَ رُمْحًا وَاحِدًا لاتَّقَيْتُهُ وَلَكِنَّهُ رُمْحٌ وَثَانٍ وَثَالِثُ

حمَّلها أبوها نتيجة موت الأم رغم صغرها. وعدم إدراكها لهذه الحقيقة المؤلمة. فقد اعتقد أن كثرة المشاوير إلى المستشفيات بسبب مرض سلمى، وتعرُّض زوجته للتلوث من كلِّ ناحية، كلُّ ذلك أدَّى إلى تلك الإصابة التي عجَّلت بموتها المبكر! رغم أن الأطباء قد أخبروه بأن جسم زوجته كان يفتقد إلى جهاز مناعيٍّ قويٍّ ممَّا أدَّى إلى أن تقع فريسة لهذا المرض اللعين الذي لا يرحم.

لم يقتنع صاحبنا بما قاله الأطباء المتخصصون. وصبّ جامَّ غضبه على ابنته المسكينة. فطرد الخادمة التي كانت تعينها على مرضها. واستعاض عن تلك الخادمة بابنته، فهي الطبَّاخ، والبوَّاب، والجنايني!!

تتحسَّس ملامحها التي نسيتها منذ فقدِها بصرَها. تحاول أن تتذكر تلك الملامح. لقد ورثت عينَيْ أمها. خضراء جميلة؛ لكن ينقصها النور الذي تحلو معه الحياة. إنسان العين قد انْتُزِعَتْ منه الروح، فصار كائنًا أخضرَ يابسًا كشجرة تقف وسط صحراء يباب!

تتتابع عليها الذكريات المؤلمة السخيفة التي تلقيها في يمٍّ مليءٍ بالقنوط.

تطارد تلك الذكريات، وتلقي بها في سلة المهملات داخل عقلها بصورة مؤقتة!

بعدها تتّجه إلى حمّام ملحق بغرفتها الصغيرة . فتغسل وجهها في عجلة ظاهرة؛ لأنها تعرف أن أباها يستيقظ في هذا الوقت من الصباح! رغم استغراقه في السُّكْرِ حتى الساعات الأولى قُبَيْل الفجر!

عجيبٌ أمرُهُ. يحافظ على عاداته جَيّدًا. ولا يسمح بتغيير جدوله اليوميّ!

ترامى إلى سمعها صوت أبيها، ينادي عليها بنبرة صوته المزعجة. وصوته المرعب الأجَشّ، كعادته كلّ صباح.

لا تدري لماذا يحمل لها كل هذا الكمّ من الحقد والكراهية، يبدأ يومه بالعبوس الدائم، والسباب. ويتنخّم بصورة مقرفة تجعلها تشمئزّ. فهو يذكِّرُها بالسُّوقة، والدهماء الذين لا يرعَوْنَ لغيرهم شعورًا!

كانت نوبات الغضب تزداد حِدَّةً، فيوسعها ركلًا، وصفعًا، إنها تذكِّره بزوجته التي كان يعشقها بدرجة مَرَضِيَّة؛ ولكنها ابنته الوحيدة، ألَا يشفع لها مرضها؟ ألَا يشفع لها كونها الرَّيْحانة التي خرج بها من الدنيا؟!

يأتيها صوته المُنَفِّر مناديًا عليها؛ كي تعِدَّ له طعامه.

تسرع ملَبِّيَةً نداءه؛ لأنها تعلم أن التأخُّر عنه له ما وراؤه!

تعرف طريقها إلى المطبخ، تخرج من غرفتها، ثم تنزل بضع درجاتٍ من السلم الخشبي، والدرابزين المرتفع، تتوكَّأ عليه، وبعد أن تنتهي منه تلتفت يمينًا، لتجد نفسها في ردهة ضيقة تصل إلى باب مفتوح دائمًا، وهو باب المطبخ. ذلك المكان الفسيح الذي يحوي موقدًا للغاز, ومنضدة تتناسب مع طولها. ودولابًا كبيرًا مقسّمًا إلى أدراجٍ كبيرة؛ رتّبته بنفسها.

وها هي الثلاجة. ثم الشُّبَّاك الكبير المُزَيَّن بإطار جميل يتيح لها كمية من الهواء الصباحي الجميل. قامت بتركيب شفَّاط كبير للهواء، يُخرج روائح الطبخ المزعجة. ووضعت كثيرًا من زهور حديقتها هنا وهناك. إنها تحرص على تغييرها كل يوم. ولا تنسى أن تغيّر ماء "الفاز".

تتعثَّر فجأة في أحد الكراسي الموزَّعة حول المنضدة. تعرف أن أباها يدخل أحيانًا إلى المطبخ ليلًا، ويجلس على أيِّ مقعد. ولا يقوم بإعادته إلى مكانه. حيث تحفظ مكان كل شيء منذ تركت الخادمة البيت. لكنه دائمًا يفعلها!

تؤلمها ساقها التي اصطدمت بالكرسي. فتزمجر وتزوم؛ لكنها تكتم غيظها متحاملة على نفسها!

تفتح الثلاجة لتخرج منها بضع بيضات، ثم قطعة من الجبن الرومي. تمسك سكينًا من أحد الأدراج، وتقطعها قطعًا مربعةً متساوية . في مهارة واضحة؛ وتخرج حبَّاتٍ من الزيتون الأخضر، ووعاءً صغيرًا به قليلٌ من مربَّى التفاح التي يحبها أبوها كل صباح.

تشعل عود ثقاب، وتدير مفتاح الغاز، وتقرِّب العود من فوَّهَةِ المَوْقدِ، كأنّ العود فَمٌ يقبِّل تلك العين المتحفزة؛ لترتفع نارٌ رهيبة، تقرب يدها في حذر لتشمَّ يدُها رائحة النار، ولفحها، تدير على أثرها المفتاح لتخفَّ حِدّتها.

تحضر صينية صغيرة، وتضع عليها طعام الإفطار، وتسلك طريقها إلى الخارج، فتعبر الردهة، ثم تتجه يسارًا، حيث منضدة صغيرة وسط حجرة واسعة بها فراش وثير. تضع الطعام على المنضدة. ثم تنصرف إلى حجرتها مسرعةً؛ لأنها تذكر جَيِّدًا أن أباها أخبرها بعدم رغبته في رؤيتها ساعة الإفطار!

اعتادت أن تأكل بمفردها. وتفرح بمفردها - هذا إذا كان هناك فرحٌ في حياتها- لم يشاركها مناسبة عيد ميلادها أبدًا. كان خالها "رفيق" هو مَنْ يحتفل معها، فيأتي لها

بـ" تورتة جميلة "، ويضع لها بنفسه الزينات. مع عدم وجود أبيها، فكان الخال ينتهز فرصة عدم وجوده. ويأتي مع بعض مساعديه؛ ليعلِّقَ لها البالونات، ويجلب لها الحلوى من كل صنف. ويجلب لها بعض الفتيات من النادي القريب، فيغنين لها ويجلبن لها السعادة، كانت تفرح بضع سُوَيْعَاتٍ قبل مجيء أبيها!

كانت تعود طفلة، فتتذكر مرحها مع أمها، ولعبهما معًا. كانت في حيرة من أمرها. هل تبكي فراقها، أم تفرح بيوم ميلادها؟!

منعها أبوها الخروج، قال لها في قلَّة ذوقٍ وغرور واضحين: ممنوع عليك الخروج، أو أن تطأ قدماك خارج هذه الفيلَّا! ويوم أراكِ، أو أسمع أنك قد خرجت ولو لمرة. فلن أخبرك بما سوف أفعله معكِ، احذري غضبي!

بعد أن ينتهي من طعامه، يتّجه إلى الباب؛ ليغلقه في عنف، ثم يعبر الحديقة الملحقة. ويفتح باب "الجراج"؛ ليخرج السيارة، ثم يتّجه إلى عمله الذي يعود منه في الثالثة عصرًا. روتين يومي اعتادت عليه، تعرف أنه رحل عندما تسمع زمجرة محرك السيارة. كل صباح وفي التوقيت نفسه. تتجه إلى الحمَّام؛ لتغتسل، فيزيدها الماء

و" الشاور" نضارة وبهاءً. لا تحتاج مرآة كي ترى وجهها. يكفيها أن الله قد صوَّرها في أحسن صورة.

خالها. الذي تعتبره أباها الروحيّ، ترتشف منه رحيق العطف، والحنان اللَّذَيْن حُرِمَتْ منهما منذ نعومة أظافرها. ومنذ فقدها لأمها. هي الآن تعيش في كنف أبٍ متوحشٍ قاسٍ، لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلًا. لقد أخبرها خالها أن الله قد أبدع تكوينها.

نسيت لون عينيها؛ لكنَّ خالها قال: إن عينيها خضراوان بلون الزرع! نعم إنها نسيت الألوان؛ لكنها تشمُّ رائحة الخضرة، وتميزها عن غيرها. إنها تعيش معها. وتتنفّسها كل يوم. تلك الرائحة النَّدِيَّة الطرية المورقة الزكيَّة. لا تنفكُّ تطاردها، وتجمِّل- رغم الحزن- كلَّ جزءٍ في حياتها. تعرف رائحة البنفسج، والفل البلدي وتميز، وتطرب روحها لرائحة الياسمين.

رزقها الله جسدًا مليحًا، وعودًا متناسق الأبعاد والخطوط، طالما مدح خالها جمالها. إنه لم يُرْزَقْ بأولاد؛ لأنه لم يتزوَّج أصلًا. كانت له فلسفة بشأن الزواج. تلك الفلسفة التي بَنَتْ بينه وبين الزواج حاجزًا، لم يستطع أن يتخطَّاه، أو يهدمه!

إنها تعتزُّ بجمالها. وتشكر الله أن منحها تلك النعمة. إن الله الذي كتب عليها أن تعيش عمرها كفيفة البصر، قد تجلَّى عليها وأجزل عطاءه، ورزقه ورحمته، فرزقها نور البصيرة، فهي تحب الصدق، وتحب كل شيء جميل في هذا العالم.

تحب زقزقة العصافير حين تَرْبِتُ على زجاج غرفتها بمناقيرها. تحب استيقاظ تلك الطيور الجميلة بعد الفجر، وهي تسعى لطلب رزقها: " تغدو خماصًا، وتروح بطانًا". وتحب الصباح، وأنفاسه المضمّخة بعطر الورد والياسمين. تحب دفء الشمس حين يداعب جلدها الطري النادي. وهذه النُّسَيْمات الرقراقة التي تداعب خديها، وتلمس روحها. تفرح بنزول المطر، وزخَّاته التي تذكرها بالأمل المفقود. وتحب قطرات الندى التي تنزل على الورود عذبة ماسية نورانية!

تأخذ المنشفة، وتجفف شعرها الفاحم المنساب على كتفيها. كأنه فستان من القطيفة الرقيقة الحالمة. تضع مرطِّبات الجِلْد. حتى تخفّفَ من لفحة الحرارة التي تسلَّلت مع الساعة العاشرة. تعدُّ لنفسها إفطارًا خفيفًا. تحب العسل؛ لكنها تعرف أنه يعطي طاقة ستشعرها بالحرارة في هذا الجوِّ الحارّ؛ فتكتفي بملعقة واحدة. تضع قطعة من "جبن القريش" قليل المِلْح في شطيرة خبز. وتلتهمها على عجل؛ حتى تبدأ برنامج النظافة اليومي الذي اعتادت عليه.

تقوم بتشغيل المكنسة الكهربائية، وتنظف الصالة الرئيسية، وتقوم بوضع زجاجات الخمر الفارغة في السلة. تتأفّف من رائحتها النتنة، اعتاد أبوها على إحضار الخمور إلى البيت. وتحدثت في هذا الأمر مع خالها. وقالت له : عليك أن تخبره أن الخمر أم الكبائر، وأني أخشى

عليه من غضب الله. وكان خالها يتلطَّف إلى أبيها، ويخبره بهذا الأمر، فيردُّ الأب المتكبّر المغرور بأنه أدرى بمصلحته! وأنه هو المسئول عمَّا يفعل. ولن يسمح لأحد بأن يجعل من نفسه واعظًا له!

كانت تحرص على الصلاة، وتؤديها في وقتها. ولا تنفكُّ تطلب لأمها الرحمة في كل سجودها. ورغم ما كان يفعله أبوها معها. كانت تطلب له الهداية والرحمة والمغفرة من الله.

كانت تحرص على الصيام، فتصوم السنن، كالاثنين والخميس. والأيام البيضاء من كل شهر. والتاسع والعاشر من شهر المحرم. وكانت تُذكّر خالها بهذه الأيام.

مالها الذي ورثته عن أمها، اشترت منه حاسوبًا يعمل بالأوامر الصوتية. فكانت تقضي معه بعض أوقاتها. حتى أنها كتبت رواية، وسرّبتها لخالها، الذي طبعها على حسابها. ولاقت نجاحًا.

لم يُغْرِها الكسب المادي، فقد تبرَّعت به لإحدى الجمعيات التي ترعى الفتيات الكفيفات. إنها لا تريد مالًا، فلديها في البنوك ما يكفيها، ويفيض عن حاجتها بكثير. لكنها تبثُّ الورق شكواها وآلامها. وزفرات نفسها الملتاعة على فَقْدِ سبب وجودها. ومصدر سعادتها. أمها.

هي تعكف في وقت فراغها على كتابة روايتها الثانية. وقد أنهت جزءًا كبيرًا منها. ووعدها خالها بتوصيلها لدار النشر التي تتعامل معها.

بعد أن تنتهي من تنظيف الصالة تتَّجه إلى غرفة أبيها. كلُّ شيءٍ مرتَّبٌ، وأنيقٌ إلَّا دولاب الملابس الذي يعاني من الإهمال. حيث يرمي أبوها كل شيءٍ خارجَهُ بصورة تعبِّر عن سوء النظام، وقلة الاعتناء. هو لا يدخل هذه الغرفة إلَّا عند النوم، فلا يحتاج السرير جهدًا كبيرًا؛ كونه لا ينام سوى سويعات قليلة جِدًّا. فهو كالمنبّه المتحرك مضبوطٌ على كلّ شيء. يستيقظ في الثامنة صباحًا، وينام في الثانية صباحًا. سبحان الله ينام كالبهيمة، فلا حِسَّ ولا شعور، يشخِّر من منخاريْهِ، فتحس كأن زلزالًا يحرك السرير العجيب أن نومه المضبوط كالساعة لا يتأثر بشرب الخمر كغيره من السكارى الذين ينامون النهارَ كلَّه. بعد ليلةٍ مليئةٍ بالسُّكْرِ، والعُهْرِ والمجونِ ! ينام ستَّ ساعات كاملة، لا تزيد ولا تنقص! ثم يفيق نشيطًا معتدل المزاج؛ إلَّا عندما يراها، فتركبه عفاريت الدنيا، وينقلب إلى شيطان رجيم والعياذ بالله!

تعيد ترتيب الدولاب، وتفرش الملاءة الجديدة النظيفة على السرير. ثم تخرج من الغرفة. وتذهب إلى غرفتها، فتتوضأ لصلاة الضحى. وبعدها تفتح المذياع على إذاعة القرآن الكريم، فتسمع الشيخ الحصري يرتل بعض آيات من سورة الأنبياء. تعيش مع الآيات بروحها وكيانها. وتنتهي التلاوة في الحادية عشرة.

تحبُّ التواشيح، وتحفظ بعضها. وجعلت خالها يسجِّل لها بعض التواشيح للشيخ طه الفشني، والشيخ نصر الدين طوبار، والشيخ النقشبندي.

تعشق له: "مولاي إني ببابك قد بسطت يدي، من لي ألوذ به إلَّاك يا سندي".

وتبكي لمناجاة نصر الدين ربه:" يا إله العالمين".

وتحنُّ لرسول الله عندما يقول الفشني مناديًا عليه صلى الله عليه وسلم: " بنور الحق شرَّفت الوجود، بطلعتك البشيرة، بالسعود".

وعندها تسجيلٌ نادرٌ لرفعت، وهو ينشد ويرنِّم بصوته الملائكي الساحر.

لديها تسجيلات الشيخ محمد رفعت كاملة. والشيخ المنشاوي، والشيخ عبد الباسط. وتعتبره أقوى صوت قرأ القرآن عبر العصور. منذ أن قرروا قراءة القرآن في الإذاعة.

كانت تدرس بطريقة "برايل"، من المنزل. وهي طالبة بقسم اللغة الإنجليزية بالانتساب في جامعة عين شمس تلك الجامعة العريقة التي يزيد عمرها على الستين عامًا.

طمحت إلى ذرا المجد، وجعلها طموحها تدرس اللغة الإنجليزية. وتحصل على دراسات حرَّة فيها. إلى جانب دراستها الأصلية. كانت تحضر المعلمين إلى الفيلَّا- في غير وجود أبيها- وتعطيهم أموالًا؛ لتصحيح الاختبارات التي كانت تجيب عنها. تضع الورق التي كتبته بطريقة برايل أمامها وتقرأ منه الإجابة، فإذا لاقت استحسان المعلم أعطاها تقديرًا مرتفعًا. أما "الأورال" أو الشفهي، فكان المعلم يسألها، فتجيب بمهارة وتلقائية، وسرعة بديهة.

انتقلت إلى اللغة الفرنسية، وأتقنتها. ثم الألمانية. وفكرت في دراسة اللغة الروسية. وأخبرت خالها أن يفتِّشَ لها عن معلّمٍ متخصِّصٍ فيها- شرط ان تكون له خبرة بالتدريس للمكفوفين- واتفقت معه أن يعلِّمها بالمراسلة. تعجَّبَ في بداية الأمر؛ لكنه وافق عندما رفعت له أجره!

أعجبها مصطلح" أصحاب الهِمَم"، فكانت تكتب في مكاتباتها سلمى الكومي" من أصحاب الهمم"، حيث كانت تتأفَّف من كلمة عمياء، أو مكفوفة، ذلك المصطلح الذي تسعد به، وتقدِّره، وتفخر بوجوده علامة على شخصيتها، بدأت مشروعها الفكري مع دخولها الصف الأول الثانوي، فأنجزت في بضع سنوات فقط، لم تحققه قريناتها في عشر.

إن طموحها يسابق الريح، فهي تستغل كلَّ دقيقة من وقتها، فهي تؤمن بالمثل الأجنبي القائل: (time is money) !

تلك النظرة المادِّيّة البحتة لم تكن تهمّها؛ بل الأهمُّ من وجهة نظرها هو كون الدقائق والساعات تمثل لها حياتها. ويجب عليها أن تستثمرها فيما يفيد. فذلك الكائن المعنوي إذا تسرَّبَتْ دقائقه منها. ستتسرّب حياتها وتتلاشى، وتضمحلّ!

خرجت إلى الحديقة. ومالت على حوض الزهور النادرة التي زرعتها بيديها. إنها تهتمُّ بتنسيق حديقتها، فترعاها كل يوم. حيث حَبَاها الله بنعمة التميز بين الزهور، والورود، فهذا النرجس، وهذا الفُلّ البلدي، وهذه زهرة الياسمين بعطرها الفوَّاح. وهذه "الأوركيد" لها رائحة أخَّاذة. لم تكن تزرعها. لكنها كانت تطلب من خالها أن يحضر لها بعضًا منها من محل الزهور بوسط القاهرة، نعم كان ثمنها غاليًا؛ ولكن لا يهمّ. المهم أن تغير رائحة البيت!

تحرص على أن تضع جدولًا به اسم الزهرة، وعمرها. والسماد الذي يجب أن يوضع لها، كانت تعطي خالها قائمة بما تريد من الأسمدة؛ حتى يحضرها لها من وسط القاهرة.

تحنُّ دائمًا للورود والرياحين. لا تملُّ الجلوس لساعات في هذه الحديقة التي صنعتها بيديها، فتحرص على ريّ الورود بنفسها. وترقب نموها، تحب براعم النبات الأخضر حينما تنشقُّ الأرض عنه معلنًا في شموخ قدومه لهذه الحياة العصيبة التي ستجبره على الثبات في وجه العواصف والرياح الهائجة. فإمَّا حياةٌ تستمر، أو اصفرارٌ، وجفافٌ وموتٌ!

إن فلسفة الحياة والموت تتجلَّى في أبهى صورها من خلال البراعم الخضراء الوليدة، تلك التي لا تفتأ ترى النور حتى تتحدَّى العواصف العاتية، والظروف القاسية، إنها تنحني للريح حتى تمرّ، فتفوز بروعة الثبات والتحدي والصمود، وها هو الماء يأتيها من لَدُنْ حكيم خبير رزاق منعم، فيرويها، فتجد تلك البرعمة الخضراء، قد استوت واشتد عودها، فتفتك بذرات الأرض وتعاركها، حتى تجد لها مكانًا تحت شمس الله، ثم ها هي تجعل من جذورها سيوفًا تنحر التربة، وتستقوي عليها، فتستسلم طائعة مرغمة، وتمتدّ تلك الجذور إلى أعماق سحيقة، ثم يعتريها ما يعتري الكائنات جميعًا، فبعد الشدة والعنفوان والشباب، تشيخ وتلقي بورقها الأصفر الواهن الحزين، فينتحر على الأرض بعد أن يهزمه الجفاف!

إنها سُنَّة الله في هذا الكون المترامي.

ترتفع الشمس في كبد السماء، وتصبّ حممها على الأرض. فتجلس في "الكشك الخشبي" الذي صنعه لها خالها؛ لكنها لم تستطع تحمُّل درجة الحرارة . فتهرب مسرعة إلى داخل البيت. وتقوم بتشغيل التكييف. فينفث هواء جميلًا منعشًا، ولم تكتفِ بهذا، فتدخل إلى الحمام الرئيسي للفيلّا؛ لتأخذ حمَّامًا باردًا. قطرات الماء تنساب على جسدها باردة منعشة كأنها حبَّاتُ لؤلؤ تنحدر على سطح من المرمر الأبيض الجميل الأملس.

تخرج من الحمَّام، وتترنَّم بأغنية جميلة:

" شمس الأصيل دَهّبِتْ خوص النخيل يا نيل، تحفة ومتصوَّرة في صفحتك يا جميل. والناي على الشط غنّى، والقدود بتميل. على هبوب الهوى لمّا يمرّ عليل. يا نيل . يا نيل . يا، يا، يا، يا نيييييييييييييل!".

عرفت أنها من كلمات محمود بيرم التونسي، وألحان رياض السنباطي. هي تحب الطرب الأصيل الذي تنعم بأنغامه النشوى مع قدوم الليل بساعاته الصيفية الحُلوة، ومع نسمات الهواء المنعشة التي تخفِّف حرارة وعرق الصيف والهجير، تأتي تلك الكلمات والألحان النورانية، فتحيي الأمل في النفس، وتدبُّ معها الحياة في الروح. يحدوها الشوق إلى سماع أم كلثوم "النسخة الأصلية الرائقة التي لن تتكرر"، فتدير المسجّل لتسمع الأغنية نفسها بالحنجرة الأصلية. فتنساب الكلمات، عذبة رقراقة جميلة إلى روحها الشَّجِيَّةِ التي تشتاق إلى الفرح، والمحبة.

لما حانت الساعة الثالثة سمعت صوت السيارة يهدر، ويتوقف عند باب الفيلَّا. يخرج أبوها من السيارة، ويغلق باب "الجراج" بالريموت كنترول. ثم يحمل بعض الشُّنَط التي أحضرها من المول التجاري. داخلًا إلى الصالة الرئيسية. وواضعًا الأغراض على المنضدة وينادي:

- أنت أيتها المصيبة! أين أنتِ؟!

تحرقها هذه الكلمات. وتخرج مرتبكةً مضطربة.

- ها أنَا ذَا يا أبي. مُرْنِي بما شئت.

- خذي هذه الأغراض. وفي ظرف ربع ساعة أجد الغداء جاهزًا.

- حاضر يا أبي.

يشيح بوجهه عنها حتى لا يراها، ثم يدخل غرفته لتبديل ملابسه.

تحمد الله أنه لم يشيِّعْها ككلِّ مرة بعبارات الشتائم. وقاموس البذاءة الذي يحفظه عن ظهر قلب!

تتوجَّه إلى المطبخ، وتشعل الموقد. ثم تغسل بعض حبَّاتٍ من البطاطس. ثم تقوم بتقشيرها. ثم تضعها في وعاء، ومعها بعض الخضراوات. ثم تخرج صينية نظيفة من الأدراج . وتغسل الدجاجة في مهارة فائقة. وتضعها في الصينية بعد أن وضعت عليها خليطًا من البهارات. والفلفل الأسود المطحون، وبعض الملح. ثم تدخل كل هذا المحتوى إلى فرن البوتاجاز، وتضبط المؤقت على خمس عشرة دقيقة.

تصنع طبقًا مميزًا من السلطة، ثم تضيف زيت الزيتون. وتخرج الخبز، وتقطعه قطعًا متساوية، وترصُّه في "السرفيس" الخاص به رصّةً جمالية أنيقة.

تخرج لإعداد السفرة، لا تتعثر أبدًا، فهي تحسب الخطوات من المطبخ إلى الصالة الرئيسية، سبع عشرة خطوة. لا تزيد، ولا تنقص.

تضع الأشياء على الطاولة. ثم تسرع إلى غرفتها. تفتح غطاء ساعتها البارزة وتتحسّس الأرقام. العقرب الكبير على الثلاثة. وينام عليه العقرب الصغير. إذًا هي الثالثة والربع. تتنفَّس الصَّعداء. ثم تتجه ناحية جرسٍ موصِّلٍ إلى غرفة نوم أبيها. وموضوع بجوار سريرها. تضغط عليه مرتين. فيخرج الأب بعد أن بدّل ملابسه. ليجلس على المقعد الرئيسي للسفرة. ويبدأ في ازدراد الطعام كالبهيمة! يلتهم الطعام التهامًا. رغم إدمانه للخمر إلَّا أن شهيته دائمًا مفتوحة على عكس مَنْ يُبْتَلَوْنَ بهذه العادة المحرَّمة. ويتمتع بجسم متناسق، فهو يحافظ على نفسه وصحته بارتياد gem

قريب من الشركة، ويحتفظ في حجرة مكتبه بعجلة رياضية أحضرها خصِّيصًا لممارسة بعض التدريبات أثناء وقت الفراغ، لم يستطع الإقلاع عن الخمور، فهو يراها السلوى عن فقد زوجته وعشيقته التي فقد الحياة مذ ماتت!

إنه يوم الخميس. ومن عادته أن يأكل طعامه. ثم يذهب لينام ساعتين، ثم يصحو بعدها، ليبدأ سهرته الأسبوعية مع أصدقائه الذين يشاركونه عادته " معاقرة الخمور بأنواعها"!

ينادي عليها بعد أن ينتهي من الطعام:

- أنت يا نيلة!

تخرج من غرفتها، وتكاد أن يُغْمَى عليها من كثرة الرعب.

- لبيك يا أبي. ههه هل من شيء؟

يرمقها بنظرات يتطاير منها الشرر.

- هل قمت بكيِّ الملابس حتى أخرج من هذا البيت الملعون؟

تردُّ في رعب.

- أجل يا أبي.

- ولِمَ لَمْ تضعي ضمن قائمة المشتريات العطر الذي انتهى من الزجاجة؟

(كانت تسجِّل له قائمة على آلة التسجيل. فيحضر ما يحتاجه البيت في السيارة)

تردّ في رعشة، وصوت مرتعد خائف من صاعقة قد تنزل عليه:

- نننند نسيت يا أبي!

ولا ينتظر أن تكمل باقي الجملة. ويصفعها صفعة ترتمي على أثرها على الأريكة المقابلة.

تنزل دمعات تلسع خديها الرقيقين. وتقول في قهر وهمّ:

- لماذا تعاملني مثل هذه المعاملة القاسية يا أبي؟ أنا ابنتك. ولست عدوًا لك!

يهدر ويزمجر: ربنا يريحني منك، ومن قرفك! لا أدري لماذا ينساكِ الموت؟

- هل أنا ثقيلة على نفسك إلى هذا الحدّ يا أبي؟!

- لقد حرمتني من أغلى إنسانة عندي في الوجود أيتها اللعينة!

- إنه قدر الله يا أبي. وهل أنا التي جلبت لأمي المرض. هل أنا التي كتبت عليها الموت؟

هو لا يريد أن يسمع منها شيئًا. يتركها لقهرها، وهمّها، وحزنها. ويدخل لينام!

تدخل غرفتها. مكلومة النفس، محزونة الفؤاد. مشتتّة الفكر. ترتمي على سريرها.

تسمع صرير صرصار الليل في الحديقة، تتأفّف من صوته المزعج.

تتوجَّه ناحية النافذة. تفتحها. متلمِّسةً بعض الهواء الربانيّ البعيد عن هواء التكييف المُمِلّ، والمحمَّل بالفيروسات!

تقطع الحجرة جيئة وذهابًا؛ في محاولة للخلاص من كمّ الكآبة والتوتر, والقلق الذي تسبَّب فيه أبوها. لكنها تزداد توترًا، وشعورًا بالحرارة. فتتوجّه إلى حمام الغرفة. وتتهيّأ لأخذ حمَّام ينعش روحها المكلومة؛ لكنها تشعر بمَنْ يراقبها خِلْسةً!

ينخلع قلبها رعبًا. فتجمع ملابسها على جسدها. وتقول في فزع:" من هناك؟! ممم من هناك؟!".

تتّجه إلى النافذة مغلقة إيَّاها. وتسرع لتفتح التكييف. ثم تطمئن على غلق الباب. وتتكوّم على السرير متلفّتةً حولها . تترقب هاتين العينين المتلصِّصَتَيْن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢- ليلةٌ مرْهِقَة

لم تكتحل عيناها بالنوم في تلك الليلة الرهيبة المرهقة، فقد حاولت قضاءها في الاستماع للإذاعة مرة، فكانت تتذكر هاتين العينين اللتين تراقبانها طوال الوقت. فيزيد فزعها ورعبها. حاولت في ساعة أخرى أن تكتب شيئًا من أحداث روايتها الجديدة؛ فأحضرت الآلة الكاتبة التي تكتب عليها بطريقة "برايل". كتبت سطرًا وحيدًا. لكن الخوف منعها من أن تكمل ما بدأته!

استعاذت بالله من الشيطان. وتوجهت قبيل الفجر بقليل إلى حمّام غرفتها. وصممت على أخذ حمَّامٍ بملابسها كما هي. فالحرارة كادت أن تخنقها. كانت معتادة على الظلام، فلم تشعل الكهرباء بالحمام؛ لكنها وضعت قطعًا من الثلج في "البانيو". ونزلت فيه كما هي. غطَّتْ نفسها بالماء بالكلية. وأحسَّت ببرودة منعشة خفَّفت من حدَّة القلق الذي كان كالوحش ينهش جسدها!

خرجت من الحمَّام. فوجدت أن أذان الفجر لم يتبقّ على رفعه في المسجد القريب سوى بضع دقائق. فتحت المصحف الذي اشترته؛ لتقرأ فيه سورة القصص. كان مجلّدًا ضمن ثلاثة مجلدات كبيرة. بالورق الأبيض المُقوَّى. حصلت عليه من مدرسة المكفوفين بالقاهرة.

أوصت إحدى قريباتها بإحضار نسخة من القرآن من الأراضي المقدسة. حيث يقوم "مجمع الملك فهد للمصحف الشريف" بطباعة مثل هذه الطبعات للمكفوفين متوافقة مع تكنولوجيا العصر. وسهلة الحَمْل. بدلًا من المجلدات الثلاثة التي تقطعت بعض حوافِّها من كثرة الاستعمال.

أذّن المؤذن بصلاة الفجر، فهُرعت إلى الصلاة، وتضرعت لمولاها أن يسترها. وأن يهديَ أباها لها. وأن يرزقه التوبة، والإقلاع عن الخمر.

هاجمها النوم أخيرًا في الساعة السادسة صباحًا؛ ولكن أيقظها صوت المنبه في السابعة والنصف بجانب سريرها، فقامت متأففةً ضَجِرَةً. تشعر بألم في جسدها كله.

منّت نفسها بالنوم بعد أن يذهب أبوها لعمله.

تذهب إلى المطبخ لإعداد الإفطار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣- عينان

القلق الذي استبدَّ بها في ليلتها الماضية. كان نذيرًا بوجود شخص غريب بداخل الفيلَّا، وحاولت طرد هواجسها بلا جدوى. بعد أن ذهب أبوها إلى العمل، منَّت نفسها بالنوم لمدة ساعتين، تقوم بعدهما لصلاة الضحى، ثم تتفرغ لأعمال البيت كالمعتاد. وضعت رأسها على الوسادة. بعد أن ضبطت المنبه على العاشرة.

عند العاشرة

تقوم مفزوعةً على صوت المنبه المزعج، لم تنمْ إلَّا لِمامًا. تحسُّ بضيق، وإعياء. تقوم من سريرها. وتُخرج من ثلاجة الغرفة تفاحة نظيفة؛ فتأكلها لتزيل مرارة كانت في حلقها، ثم تتوضأ لصلاة الضحى، وتفرد سجادة الصلاة تجاه القبلة.(كانت قد صنعت شاهدًا خشبيًّا تجاه القبلة. وهي ليست في حاجة للبحث عنها، فيكفيها أن تلمس هذا الشاهد حتى تعرف أنها تقف تجاهها).

بعد الصلاة تسبِّح. ثم تخرج إلى الحديقة؛ كي تطمئن على زهورها.

لأول مرة تنسى إغلاق باب المطبخ من الخارج. وتسلك طريقها إلى الممرّ الذي يوصلها للحديقة. ثم تجلس القرفصاء لتلمس، وتشمَّ أعواد الياسمين، والريحان، ثم تأخذ رشَّاش الماء، فتسقي حوض الورد الأحمر. تضع الرشاش على رأسها، وتحس بصوته الجميل. لكنَّ الماء كان ساخنًا من تأثير حرارة الشمس. تتغلغل بعض القطرات إلى رأسها، فتنفض شعرها جهة اليمين، وجهة اليسار عدة مرات؛ لكن الحرارة لا تزال تضايقها، فتجري مسرعة إلى داخل الفيلَّا.

تدلف للمطبخ لتصنع لنفسها الإفطار.

تتذكر أنها نسيت باب المطبخ مفتوحًا، فتغلقه وراءها؛ لكنها تتعثَّر بشيء واقع على الأرض!

تميل ناحيته، فتجد بقايا من الخضراوات، وبعض ثمار التفاح، فتعجب، ويتملكها الرعب، فتصرخ:

- مَنْ هنا؟! مممم مَنْ هنا؟!

تتراجع إلى الوراء، وتجلس على أحد الكراسي المقابلة للطاولة. مرعوبة مأخوذة من هذا الضيف المتلصِّص الثقيل!

تتلفَّت حولها في فزع ظاهر، ثم تتماسك بعد بضع دقائق، وتحاول نسيان ما حدث، فلعلَّه القِطّ الشرس الذي يأتي بين الحين والآخر، ويخطف بعضًا من اللحم من الثلاجة. حيث إنه اعتاد فتحها! حاولت وضع بعض الحِيَلِ؛ كي تمنعه ممَّا يفعل؛ لكن محاولاتها ذهبت أدراج الرياح.

تتجه إلى الثلاجة لتخرج منها بعض الأشياء. تتحسَّس الدرج التحتانيَّ. وتصعق عندما تجد أنه قد أُفْرِغَ من محتواه! حيث كانت تضع بضع تفاحات. وبعض أصابع من الموز الأصفر الكبير!

- ما هذا الذي يحدث؟! لا بُدَّ أن أجد حلًّا لهذا القط المزعج!

تخرج بعض الجبن الرومي. وتضعه في شطائر طريَّة. هي لا تحب استخدام آلة تحمير "التوست"، رغم أنها موجودة بالمطبخ؛ إلَّا أنها تستخدمها فقط لأبيها. حيث يحب التوست بهذه الطريقة- صيفًا وشتاء- .

كانت عينان تراقبانها من خلف الزجاج الشفاف المثبت بأحد شبابيك المطبخ.

تنتهي من طعامها، ثم تبدأ أعمالها المنزلية المعتادة.

في الساعة الثالثة يعود الأب من عمله، فتهرع لوضع الطعام على الطاولة بالصالة الرئيسية.

وتختفي من أمام أبيها!

ينتهي كعادته من الطعام؛ ثم يذهب لينام.

تنظف مكانه، وتصلي العصر؛ ثم تفتح الحاسوب. وتبدأ في الكتابة عن طريق برايل: [يقول روبرت لصديقه سير ريجنالد هاملتون: لقد قررت أن آخذ قسطًا من الراحة يا عزيزي. فلقد أرهقتني أمور العمل؛ حتى أنني لا أجد بعض الوقت لأقضيه مع ولدي جورج. وابنتي ماري. ولقد نبهتني زوجتي إليزابيث إلى هذا الأمر.

يهزُّ السير هاملتون رأسه موافقًا. وهو يضع "البايب" في فمه، ويخرج زفرة من الدخان الكثيف.

ولكن. هل قررت أين ستقضي تلك الإجازة يا عزيزي روبرت؟! أعتقد أن أسبوعًا كاملًا في الريف الإنجليزي سوف يفي بالغرض.].

تتوقف عن الكتابة في قلقٍ بالغٍ بعد أن سمعت سقوط شيءٍ في الخارج. وكأنه "إصِّيصٌ" للزرع قد تحطَّم.

تخرج مهرولة يتصبَّب منها العرق. وقد أمسكت في يدها عصا؛ لتخيف بها القط المزعج!

تُتَمتمُ في غيظ: والله لو أمسكت بك أيها القط الغبي. فلسوف أكسر تلك العصا على رأسك!

تقطع الطُّرْقَة جيئة، وذهابًا بحثًا عن القط. وتتجه ناحية الأشجار متوسطة الطول التي زرعتها كمربع ينقص ضلعًا حول سور الفيلَّا من الداخل؛ لحجب الرؤية عن أعين المتلصِّصين؛ لكنها لا تسْلَمُ من عينين تراقبانها.

نعم، إنها تأكدت الآن من وجود هاتين العينين حولها. تراقبانها أينما ذهبت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤- صحفي مشاغب!

بسَّام صحفي في جريدة معارضة. يمتاز بحسٍّ صحفيٍّ دقيق. يشمشم عن الأخبار كالقط النَّهِم. يضع نفسه دائمًا في دائرة الخطر، يخوض غمار الأحداث، ولا يهتم كثيرًا لعواقب ما يتحدّاه. مشهور بصنع "الخبطات الصحفية"، و"الريبورتاجات" الساخنة التي تلفت أنظار القرّاء من الجماهير البسطاء. يزعم البعض أن الشعب المسكين لا يقرأ؛ لكن الحقيقة مختلفة. فالفقير رغم أنه يحصل على قوت يومه بالكاد؛ إلّا أنه يوفر الجنيهين اللَّذَيْن يشتري بهما الصحيفة، وهو نَهِمٌ لمعرفة الأخبار، ومتابعة الساحرة المستديرة. ومَنْ قرَّر مقاطعة الصحف منهم، فإنه يحصل على الأخبار من مواقعها الإلكترونية. فكثير من الناس اليوم لديهم أجهزة هواتف محمولة. حتى أن إحصائية قالت في أحد الأيام إن أكثر من ثلثَي الشعب لديهم هواتف!

كان لبسَّام السبق في التنبيه إلى خطر البناء العشوائي في مدينة الإسكندرية. حيث أثبت أن هناك "مافيا" للبناء بدون ترخيص تشمل كل شِبْرٍ في المحافظة. وأن هناك من يسمّى بـ"الكَحُول"، وهو شخصٌ فقيرٌ يتمّ استخدامه من جانب الكبار كستار تُكتب باسمه الأوراق، ويتم عمل التراخيص تحت اسمه المستعار نظير مبلغ زهيد من المال، حتى إذا قام البرج السكني مرتفعًا شامخًا متحديًّا القوانين، يبرز المقاول أو مالك العقار مخرجًا لسانه للجميع. حريصًا على جمع عشرات الملايين من وراء هذا الوحش الخرساني الذي زرعة!

أثبت بسَّام أن هناك ما يقرب من ٣٠ ألف حالة بناءٍ عشوائيّ في محافظة الإسكندرية نفسها فقط!

تخرّج هذا الشاب في كلية الآداب قسم صحافة؛ ولكونه عاشقًا للكتابة، فقد برع في هذه المهنة. وقرر أن يلقي بنفسه في أتون محاربة الفساد الذي فرَّخ، ونما، وترعرع في البلاد.

هو منشغلٌ الآن بملف في منتهى الخطورة يتعلَّق باستيراد اللحوم الفاسدة التي تُغرق الأسواق كل يوم، تتبَّع خيوط تلك القضية. وجمع المستندات، وعرضها على رئيس التحرير الذي عارض نشر القضية برمتها:

- لا. لا .لا يا بسَّام. لا يمكن نشر هذا الموضوع في جريدتي ما دمت حيًّا!

- لماذا يا أستاذ شاكر؟!

- دعْ غيرك يقلْ هذا الكلام يا عم بسَّام! أنت تعلم كما أعلم أن نشر مثل هذه القضية سوف يجعلني أنا، وأنت وراء الشمس!

- يا أستاذ شاكر، ألسنا جريدة معارضة، ويجب أن نحسّ بآلام الناس، ونعبر عن آلامهم، وأحلامهم؟!

- هذا كلام إنشائِيّ يا بسَّام. أرجوك لا تحرجني أنت تعلم كمّ العوائق التي نجدها في طريقنا أثناء عملنا الصحفي. أنا لديَّ أسرة، وأولاد أريد أن أرعاهم، وليس عندي استعداد أن أقفل الجريدة.

وأخسر حملات الإعلانات التي تدِرُّ عليَّ ربحًا وفيرًا من أجل خاطرك، وخاطر الفقراء الذين تتحدث عنهم!

- يا أستاذ شاكر، نحن صوت المظلومين. إن لم نُثِرْ قضاياهم، ونهتم بأفراحهم، وأتراحهم من الذي سيفعل؟!

- قلت لك هذا كلام إنشائي! كنت مثلك في بداية عملي الصحفي؛ ولكن عندما سُجِنْتُ بسبب رأيي، وابتعدت عن أسرتي، وعيالي. وجدت أنه لا أحد يهتم بالفقراء؛ بل الجميع يهتمون بتحقيق المكاسب. كم سيكون الرصيد في البنوك؟ وأين سيقضون الصيف هذا العام؟ وما الذي سيفعلونه في دراسة أبنائهم؟ هل سيبقون داخل مصر؟ أم الأوْلَى إلحاق الأولاد بجامعات، ومدارس خارج القُطْر. انسَ يا بسَّام أن تنشر هذا التحقيق. على جثتي!

أُسْقِطَ في يَدَيْ بسَّام. ولم يتخيل أن هذا المناضل القديم الذي قضى بعض سِنِيّ عمره في السجن بسبب آرائه، سيتحول إلى هذا الحَمَلِ الوديع!

" ربَّما هو خائف فعلًا على نفسه، وأسرته وعياله".

قالها في حسرة وألمٍ، وتأفُّف. وقرر أن يأخذ التحقيق إلى جريدة أخرى.

- لن أيأس، فالجرائد تملأ مصر طولًا، وعرضًا، وهناك مئات المواقع الإلكترونية المعارضة تتمنَّى نشر مثل تلك التحقيقات. نعم كثير منها لا يعطي مقابلًا مادِّيًا مجزيًا؛ بل العمل في بعضها يتم دون أجر!

لكن لا يهمّ. المهم هو بيان الحقيقة، وتحذير الناس!

"الكبدة" المستوردة يتم التخلص منها دون مقابل في دول أوربا، وهنا يبيعونها للناس بثمن بخس. وهي تحمل في ثناياها الأمراض الفتَّاكة للمصريين.

حصل على أسماء بعض المستوردين لها. وعرف من الذي يسهل دخولها.

اللحوم غير المُزَكَّاة التي يتم استيرادها من البرازيل بأثمان زهيدة. وبيعها بأضعاف مضاعفة في الأسواق، والمولات، والبقالات تعصف بحياة المصريين.

المصريون يأكلون أحشاء البهائم، وهم لا يعرفون مدى الخطر الذي يكمن وراء هذه "الزبالة" كما يسمّيها من يأكلها!

يا لك من شعب "غلبان"!

ختم حديثه مع نفسه بهذه الجملة، وهو "يتصعَّب" من خلال شفتيه؛ شفقةً على حاله كفقير، وحال المصريين الذين اضطرتهم ظروفهم، وفقرهم لأكل مثل هذه "الزبالة".

وبعيدًا عن التنظير السياسي، والبطولات العنترية، أسَّس بسَّام نظريته السياسية الخاصة به. التي ملخصها: أن الحرب على الفساد تأتي من خلال تطهير المحليات من الفاسدين، حتى نضمن القضاء على العشوائيات، وتطهير المواقع التي لها علاقة بالجمهور من الفاسدين، الذين يصدرون قرارات "مضروبة" للشركات، والمحلات، والدكاكين، التي تبيع الطعام الفاسد للشعب

المطحون! وكذا الاستغناء عن الموظفين الذين ماتت ضمائرهم، وتحالفوا مع تلك الشركات لاغتيال الفقراء اغتيالًا بطيئًا بتصدير القوت الفاسد لهم، فتصيبهم الأورام والسرطانات الناتجة عن فساد تلك الأطعمة واللحوم!

عرف أن أحد أباطرة اللحوم الفاسدة هو "نعمان الكومي"، الذي يستورد اللحوم الفاسدة من الخارج، ويرشو الكبار؛ حتى يُدخل بضاعته إلى الأسواق المصرية، وأن حجم تجارته قد وصل إلى نصف مليار من الحرام. فقرر أن يبحث عمًّا يدينه!

فتَّش حول مؤسسته العملاقة التي بناها منذ عشر سنوات، فوجد أن الأوراق مضروبة. وأنه متهرِّبٌ من ضرائب مليونية، لم يدفعها منذ تاريخ إنشائه للشركة، فكان يشتري ذِمَمَ الموظفين الجشعين بالأموال، والسهرات التي يغدقها عليهم!

حاول الحصول على بعض المستندات التي تثبت تورط نعمان، فكان نصيبه "علقة ساخنة" خلَّفت عاهةً مستديمة في قدمه اليسرى التي أصابها العرج الخفيف!

لكنه لم يصمت رغم تلك العاهة، وصمَّم على أن يكمل طريقه، ومشواره الذي اختَطَّه لنفسه.

أيقن أن البحث وراء نعمان، لن يكون مفروشًا بالورود والرياحين، وأنه وضع كلتا يديه في عش الدبابير. وأنه يسعى إلى حتفه لا محالة!

حدَّثته نفسه بالتراجع، وإيثار السلامة. والجلوس في بيته مُؤْثرًا الدّعة والراحة؛ لكنه عاد في حماس زائد ليذكِّرَ نفسه بالملايين الذين اعتبر نفسه مسؤولًا عنهم، وكونه راعيًا لمصالحهم. وأنه صار منذ تخرّج في الجامعة لسانهم، ومحاميهم.

دقّق في المسألة، وعرف أن "نعمان الكومي" يسكن في إحدى المناطق النائية عن العاصمة: " التجمع الخامس" الحيّ الذي أنشأته الحكومة ضمن الأحياء الجديدة للخروج من زحمة العاصمة وخنقتها، الحي الذي هُرِعَ إليه الأغنياء؛ كي ينعموا فيه بالهدوء والراحة، بعيدًا عن الرصاص القاتل الذي يملأ الشجر، ويصيب الرجال والنساء بالعقم من الأولاد، والازدحام الدائم، والفقراء!

قرر أن يذهب إلى هناك، وأن يفتش عن شيء يدين صاحبنا الفاسد، قاتل الفقراء كما كان يسمِّيه!

ورقة بخط يده، أو "فلاشة" عليها أسماء من يتعامل معهم من الفاسدين في الدول الأخرى. تقارير مضروبة عن اللحوم الفاسدة التي يقوم باستيرادها. أو ملفات للضرائب فيها حجم تعاملاته غير الحقيقي، وأخرى سليمة قد تذهب به إلى السجن إلى غير رجعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥- نعمان الكومي

كان نعمان يكره الأمن، فلم يوظِّفْ للفيلّا أحدًا؛ خوفًا من الاطِّلاع على الأسرار التي تحويها الخزينة الإلكترونية التي يضعها في الداخل؛ واحترامًا لخصوصيته هو، حيث لا يريد لأحد أن يطَّلِعَ على ابنته العمياء، التي يعتبرها عارًا يجب عليه أن يحجبه عن أعين الناس! تمامًا كبعض الفنانين الذين أخفوا أبناءهم الذين يعانون من أمراض نفسية، أو عقلية حتى لا تطلع عليهم أعين الصحفيين" الحشريين"، فيفتح هذا الأمر أبواب جهنم عليهم. وينفضّ عنهم المنتجون!

احتفظ الكومي بإدارة للأمن في المؤسسة لدواعٍ مهمَّة، أول تلك الدواعي: إبعاد المتطفلين عنها، وتنظيم الداخلين والخارجين منها وإليها، وثالثًها: تأديب من يجترئ عليه من العابثين، والأعداء الذين يرومون هدم نجاحه الذي حققه طوال عشر سنوات!

اختار هذا الموقع النائي، حيث انتقل من حيٍّ في وسط القليوبية "حي شبرا الخيمة" الذي تغلب عليه الضجة. ويفترسه التلوث. وكان سببًا في إصابة زوجته بالسُّل في بداية الأمر، ثم تحوّل الأمر إلى سرطان نهش رئتيها، نتيجة لنقص مناعتها، ودار على أطباء العاصمة، واستنفد ماله القليل حينها.

ثم جاهد بضع سنوات، وساعده ذكاؤه الحادّ في أن يقنع بعض المستثمرين بالتعاون معه، فوقف من جديد في السوق على قدميه، وواصلت زوجته الليل بالنهار رغم شكواها من حدَّة المرض، وتيسَّرَ لهما الانتقال مع الابنة إلى هذا الحيّ الجميل النائي الهادئ.

لم يساعد الهواء النقي، والهدوء الذي يسود الحي الزوجة في أن تتحسن حالتها، وازداد الوضع سوءًا، وتقدمت يد المَنِيّة، وأنشبت أظفارها، وفتكت بصدر الأم الشابة، واستردّ الله وديعته، بعد أن تركت هذه الأم طفلة عمياء.

محا الأب القاسي كلّ معاني الحب نحو ابنته المكلومة بفقد أمها. المحرومة من نعمة البصر. تلك الفتاة التي انطفأ النور من الجوهرتين اللَّتَين تتوسطان وجهها، اعتقد أن ابنته كانت سببًا في قتل معبودته التي ترنَّم بآيات العشق في محرابها. تلك النسمة الرقراقة التي ملأت عليه حياته، والزهرة اليانعة التي جمَّلت أفقه، والنهر العذب الذي روى غُلّته. والأساس العتيد الذي اعتمد عليه: ليكبر ويعلو وينجح!

راحت الأم، وتركت له أزمة تؤرِّق حياته، وتقُضّ مضجعه آناء الليل, وأطراف النهار!

تركت الأم له "خُرّاجًا" مليئًا، غير قابل للتصريف!

زيّن له شيطانه أن تلك البنت العمياء، المحرومة من كلمة عطف حانية من أبيها تواسيها عن فقد أمها هي سبب شقاوته وتعاسته، وهي - فقط- دون غيرها مَنْ حكم عليه بالعيش وحيدًا إلى الأبد! فلا ونيسَ يؤنسُ وحشته، ولا جليسَ يطفئ ظمأ روحه الثكلى.

تطلّب العمل منه أن يغيب عن زوجته شهرين كاملين. فتركها بهذه الحجة؛ ولكنه ضَعُفَ أمام إغراءات الشيطان، فأغواه، وأوقعه في الخطيئة.

ولما علمت زوجته بهذا الأمر. قررت أن تنتقم منه، وتسقيه من الكأس نفسها التي سقاها منها، فارتمت في أحضان صديق أخيها، الذي استغل ضعفها، وأوهمها كذبًا أنه الصدر الحنون الذي ستدفن جراحها فيه، وأنه سيضمد تلك الجراح التي تسبَّب فيها زوجها الأرعن الطائش!

نعم، أخطأ كلٌّ واحد منهما في حق الآخر.

لكنهما تصالحا، وتعاهدا من جديد على أن يكون كلاهما وفيًّا للآخر. فلا غدر ولا خيانة!

لكن عهد الصلح كان مذيّلًا بشرط، وهو أن يتنازل الكومي عن نصف شركته بالكامل لزوجته!

تأفَّف في أول الأمر؛ لكنه رضخ، واستسلم في النهاية لمّا خيَّرتْه زوجته بين البقاء أو الرحيل، وحتى تضمن ألّا يلعب بذيله مرة أخرى!

ولكن ما المقابل؟ قالت: إنه ليس لديها إلَّا الوفاء، والإخلاص له حتى تموت، وأما عن السقطة التي سقطتها فـ "هذه بتلك"، ولما استفسر منها قالت: أنت خنتني مع أول طارقة طرقت بابك، بينما كنت أنا وفية لك. ولما طعنتني تلك الطعنة القذرة، فكرت في أن أنتقم منك شر انتقام، وأذيقك من نفس الكأس التي سقيتني منها، لم أكن أرغب في هذا الأمر؛ لكنك دفعتني دفعًا. والآن بعد أن تبت إلى الله من هذا الذنب الذي ندمت عليه، وعاقبني الله بمرض يأكل صدري، أطلب منك أن تثبت حبك لي وتوبتك بأن تكتبَ لي نصف شركتك التي عاونتك في تأسيسها. والليالي التي سهرتها تشهد بأن كلَّ حجر في تلك الشركة قد أكل مني خلاياي، وأعصابي، وأنت تشهد على ذلك. فأقل مكافأة تقدمها لي، أن تتنازل لي عن نصفها!

نفذ في هذه الجلسة كل ما أرادته دون قيد أو شرط. لأن عدم الموافقة تعني الطلاق والهجر، والموت. نعم أن تتركه زوجته، فهذا هو الموت بعينه!

بعد وفاتها، حاول أن يستعيض عنها ببعض النزوات؛ ولكنه فشل بسبب انطباع صورة تلك الميتة في ذهنه، فكلما أقدم على خيانتها، ظهرت له في سقف الغرفة، وهي تؤنِّبه، وتحاكمه على تلك الخيانة، والعهد الذي قطعه معها، أن يظل الواحد فيهما وفيًّا للآخر حتى بعد مماته!

عامل وحيدته كالخادمة مُذْ ماتت أمها، قرر عدم استقدام من يساعدها على تجاوز أزمتها، إمعانًا في إذلالها، كان يكتم ألمًا دفينًا في صدره تجاه تلك المسكينة العمياء!

قرر أن تعيش التعاسة في أبشع صورها. أضمر الانتقام منها، ومارس سادِيَّتَه المقيتة ضدها! أذاقها العذاب ألوانًا، وحرمها أن تفرح كغيرها من البنات!

حرمها أن تسعد بفوران جسمها. ككلّ أنثى خافت من نزول أول قطرة دم منها، وخافت أن تخبره، حتى لا يظنّ بها الظنون! كانت تتمنى أن تكون أمها معها في هذا الظرف الخاص بكل بنت؛ لكنه القدر، وعليها أن تتعامل مع هذه العادة بحذر وصبر.

كانت تريد أن تبوح بهذا السر لأمها؛ حتى تشير عليها بما ينبغي فعله خلال تلك الأيام الشهرية؛ لكن القدر أبى إلَّا أن يحرمها منها إلى الأبد.

كتمت خبرها عن أبيها. لكنها باحت به لخالها "رفيق" الذي كان اسمًا على مسمًى، عاملها كابنته، ليس لأنه خالها؛ بل لأنها قطعة من أخته التي تركتها أمانة في عنقه، وأوصته بذلك، وأقسمت عليه. فهو بارٌّ بقسمه حتى الممات!

رفض الزواج، وحانت له الفرصة أكثر من مرة؛ لكن مجرد فكرة أن يترك ابنة أخته يومًا واحدًا كان مؤلمًا لروحه، وجعله يشعر بالذنب حيالها، فمن لها بعد أن يتخلَّى عنها، ويخون الأمانة؟ من لها وهي التي تعرفت إلى الدنيا بعد فقدها لبصرها من خلاله؟!

عرَّفها الألوان، وقوَّى لديها حاسّتَي الشمّ واللمس، طلباتها كلها مجابة، كانت ترفض فكرة وجود هاتف محمول؛ لأنها لم تقتنع به في بداية الأمر؛ لكنه أقنعها بأهميته أخيرًا، وأحضر لها واحدًا، لم تستعمل فيه إلّا بعض الأزرار التي تفي بالغرض. زر الرد. وزر إغلاق الاتصال، ومعرفة الساعة لم يكن أمرًا ضروريًّا بالنسبة لها، فلديها ساعتها في يدها. تتحسَّس العقارب بعد أن ترفع الغطاء الزجاجي. ليس هناك أسهل من هذا!

أتى لها – خفية- بمعلم؛ ليعلِّمَها لغة برايل، فأظهرت مهارة فائقة على استعمال هذه الطريقة، وأحضر لها المصحف مكتوبًا بالطريقة نفسها من مدرسة المكفوفين، وبعض الكتب التي أعانتها على خوض امتحان الثانوية العامة. تعتبر نفسها في تحَدٍّ مع نفسها. وسبق أن خاضت غمار امتحان من نوع خاص. كان الامتحان، أو المعركة يتمثل في إقناع والدها بجدوى دخولها أصلًا للامتحان، الذي يعدُّ أمرًا من رابع المستحيلات، كظهور العنقاء واللَّهْو الخفي مثلًا.

اجتمع الثلاثة: الأبُ، والابنة، والخال، في اجتماع عائليٍّ عاصف، ظهرت فيه أنانية الأب الفاجر الذي قال، والشرر ينطلق من عينيه:

- على جثتي أن تدخلي هذا الامتحان! هل تتحدَّاني يا رفيق؟

- من الذي قال هذا يا نعمان؟! لقد حرمتها من كلِّ شيءٍ. فلماذا تصِرُّ على حرمانها من سبب الفرحة الوحيد في حياتها؟! أن تكمل دراستها، ابنتك متفوقة، ومثابرة. ألم تسأل نفسك كيف تعلمت القراءة والكتابة بطريقة برايل؟ إنها تكتب على الحاسوب بمنتهى المهارة، لماذا تصِرّ على تحطيمها بهذا الشكل؟ أنا لا أفهم، ما سبب كلِّ هذا الذلّ، والقهر يا نعمان؟! لماذا تعاملها هذه المعاملة الفظَّة القاسية؟! إنها ابنتك!

" الجملة الأخيرة كانت كطعنةٍ في قلب الكومي الذي انفجر حنقًا، وغيظًا":

- ليس هناك داعٍ لكلّ هذا "التقطيم"! أنت تقول إنها ابنتي، يعني ملكي. هي كقطعة الأثاث أفعل بها ما أشاءٌ. ليس لك دخل!

قال هذه الجمل القاسية، وأحسَّت أن جبلًا قد وقع عليها. شلَّال من الدمع ينهمر من مقلتيها. وطوفان من الغيظ والقهر، والإحساس بالظلم يعصف بكيانها.

يقول رفيق في عصبية زائدة:

- يا نعمان أنا أتحدث معك كرجل لرجل، وليس هناك داعٍ لاستفزازي!

- ما الذي تستطيعه؟ أفرِغْ ما في جعبتك. هيَّا، أرِنِي آخر ما عندك!

"ينظر إليه في تحدٍّ ظاهر".

فيقول رفيق، وهو يتلمَّظ غيظًا:

- هناك إجراءات كثيرة أستطيع بها الردّ عليك, وتعليمك، وتأديبك!

يمسك نعمان بياقة قميصه، ويحاول خنقه. لكن رفيقًا كان أقوى منه بنيةً وقوة، فقبض على كلتا يديه، وانتزعهما. ولفَّ يده خلف ظهره، فتألم نعمان من شِدّة وطأته عليه. وخارت قواه، وحاول أن يتخلص من رفيق، فلم يستطع إلى ذلك سبيلًا.

تصرخ سلمى فيهما:

- كفى أرجوكما، فما عدت أحتمل كل هذه الخلافات! ماذا أفعل يا ربي؟!

يردد نعمان:

- انزع يديك القذرتين عني!

يهدأ رفيق شيئًا، فشيئًا. ويترك يَدَيْ نعمان، وتنزل سحابة من الهدوء عليه بعد ان رأى توسلات ابنة أخته، ودموعها.

بينما السَّادِيّ الغاضبُ يتحسَّسُ يَدَيْه في غضبٍ ممزوجٍ بلينِ الكلام بعد أن لمس قوة رفيق للمرة الأولى، فلم يكن قد اختبر الأمر من قبل!

- دعنا نتفاهم بهدوء.

يرتفع صدر رفيق ما بين شهيق وزفير، ويقتنع بكلام نعمان؛ لكنه يطرق الحديد وهو ساخن:

- شوف يا نعمان، أمامك حلٌّ واحدٌ من اثنين: إمّا أن تسمح لسلمى بدخول الامتحان، فتتَّقِيَ غضبي، وإمّا أن أخرج من هنا، إلى أقرب قسم شرطة، وأحرِّر ضدك محضرًا أتهمك فيه بتعذيب ابنتك، ومحاولة قتلها!

تجحظ عينا نعمان مستغربًا من هذا التهديد الواضح، ويرغي ويزبد قائلًا:

- أتفتري عليّ يا رفيق؟ أنا حاولت قتلها؟ ما دليلك على ذلك؟

يردُّ عليه ساخرًا:

- أتذكر يا أيها الأب الرحيم المحبّ، الأسبوع الماضي حينما أنقذتها من بين يديك. وقد أوشَكَتْ على الموت، وأغْمِيَ عليها بسبب خنقك لها، وقد لحقتها في آخر دقيقة، وخلَّصتها من بين يديك الآثمتين؟!

- ما دليلك على هذا الأمر؟ أنا لا أذكر شيئًا ممَّا تقول!

- دعْ عنك هذا "الاستعباط"! لقد رجعت مخمورًا ليلتها، واصطنعت مشادَّة معها، ونسيت أني قمت بتركيب كاميرات بإيعاز منك، وبأمرك أنت، وخنقتها. ولولا أن الله أرسلني لحاجة كانت سلمى قد طلبتها مني. لكانت الآن تحت التراب. كل هذه الفوضى سجّلتها الكاميرات، وأحتفظ بالتسجيلات في "الحِفْظ والصّون"، ولو شئت أنا لقدَّمت تلك التسجيلات للمحقِّقين، فتبيد دولتك الظالمة التي تفتري بها على عباد الله.

تهدأ ثورة المجنون، ويتكلم بمنتهى الهدوء منافقًا لرفيق:

- دعنا نتفاهم يا رفيق، فأنت صديقي، وأخو زوجتي الحبيبة!

يبدأ رفيق في إملاء شروطه:

- لست صديقًا لأحد! فلقد مَرَّغْتَ هذه الصداقة في الوحل. والله لولا خوفي على ابنة أختي؛ لأَرَيْتُك من هو رفيق. تجنَّب غضبي. والّا ألقيت بك وراء الشمس، إن من يحمونك لن ينفعوك، وسيقفزون من سفينتك الخرقاء بعد أن تفوح رائحتك. أنا أعرف عنك الكثير الذي لا تتخيله! دعْ سلمى تدخل الامتحان، ولا تضايقها.

"ينظر إلى الأرض ساهمًا للحظات، كأنه يفكر بجَدّيَّةٍ في تهديد رفيق، حيث رنَّتْ الجملة الأخيرة في أذنه، وعقله جيّدًا: أعرف عنك الكثير الذي لا تتخيله!". وبعد أن يزن الأمور بميزان العقل يقول:

- موافق. بشرط.

يستشيط رفيق غضبًا متسائلًا:

- ولك شروط؟!

يقول نعمان مرتجفًا:

- من حقِّي .فهي ابنتي!

رفيق ضاحكًا ومستهزئًا:

- واللهِ! هل تذكرت أخيرًا أنها ابنتك؟! ما شرطك؟ خلّصنا، هات ما عندك، أنا مُصْغٍ.

- أن تكتفي بالثانوية العامة، ولا تكمل في الجامعة. هذا إذا نجحت!

- إن شاء الله ستنجح.

تلتقط الكلام حزينة بائسة:

- ولماذا لا تريديني أن أكمل الجامعة يا أبي؟

- لأنك لست في حاجة إليها يا ذكية، فأنت عمياء، وأمامك عقبات كثيرة لا حصر لها.

رفيق : سمّ لنا جزءًا من تلك العقبات!

نعمان: الكتب، والمواصلات. من الذي سيصحبها كل يوم إلى الجامعة. وزملاؤها المبصرون. والمعيدون والدكاترة. كيف سيتعاملون معها وهي بحالتها تلك؟

رفيق: يبدو أنك لست من هذا العالم. يا عمّ نعمان، نحن في القرن الحادي والعشرين. فكلُّ ما ذكرت أصبح من الماضي!

سلمى: يا أبي كل ما تقوله مقدور عليه الآن، ولا يشكِّل أدنى مشكلة.

نعمان: اصمتى يا سببَ ما أنا فيه من البلاء، لا أريد أن أسمع صوتك. فهو يعصِّبني!

رفيق: لا تتحدث إليها بهذه الطريقة أمامي! وإلَّا علمتك الأدب.

تضع سلمى يدها على كتف خالها:

- يا خالي، أرجوك نحن نحاول أن نجد حلًّا. الامتحان لم يبق عليه إلَّا أيامٌ قلائل، ولا يمكن لي أن أعتذر عنه بعد تعبي لعام كامل في تحصيل الدروس، واستيعابها، أنا أتعب في المذاكرة أكثر من المبصرين. أرجوك قدّرْ ما أنا فيه!

رفيق: عمومًا سنوافق على شرطك مؤقتًا، ويفعل الله ما يشاء. هناك طرق أخرى لاستكمال التعليم، سترى، وسنرى ما تحققه هذه المسكينة، سوف تبهرنا وتبهرك. أنا متأكد من هذا الأمر، والآن أعتبر شرطك بمثابة موافقة على خوضها الامتحان؟!

- لو وافقتما على شرطي، فأنا موافق.

ينطلقان بصوتٍ واحد فَرِحَيْن:

- موافقان.

تحتضن سلمى خالها رفيقًا في حبور ظاهر. وتقبله على وجنتيه. فيردُّ لها قبلاتها. مشفقًا عليها. فخورًا بها، وكانت تريد أن تحتضن أباها؛ لكنها جفلت وأصابها الإحباط لما وجدت منه هذا الجمود والصد. والبرود!

٦- امتحان الثانوية العامة

بعد أسبوع حان موعد الامتحان. فكان خالها يأخذها في سيارته، ويتوجَّه بها للجنة الامتحان التي كانت في وسط القاهرة، فكانت صامتة طوال الطريق. وصلت للجنة الامتحان. أجلسوها بإحدى اللجان الخاصة، ووجدت الملاحظ يعطيها بعض الورق المُقوَّى؛ حتى تكتب بطريقة برايل، التي تعتمد على إبراز الحروف في شكل مجسَّم، بحيث يضع الإنسان أصابعه، فيقرأ ما يريد، كما أن لها ورقًا خاصًا يستخدم للكتابة، وهو من هذا النوع الأبيض المُقَوَّى الذي تظهر معه الكتابة البارزة، وهو النوعية نفسها التي أعطاها الملاحظ لسلمى، كما أن الإنسان يستطيع أن يكتب بالطريقة نفسها؛ ولكن عن طريق استخدام مسطرة خاصة لهذا الغرض، وهذه المسطرة مقسَّمة إلى عدة خانات، فالألف له خانة والباء له خانة ثانية، والتاء له خانة ثالثة، وهكذا.

الغريب أن هذه الكتابة قد تقدَّمت بحيث وجدنا تشكيل الحروف أيضًا، فالفتحة والضمة والكسرة والسكون، والشدة، نجد لها نظيرًا في كتابة "برايل". إنها معجزة إنسانية بكل المقاييس!

جاءت سلمى بهذه المسطرة من البيت، كي تكتب ما تريد، وحتى تستطيع الكتابة، صنعت لوحًا مربعًا من الخشب حتى تسند عليه الأوراق بمشبك خاص أخرجته من حقيبتها، أخرجت اللوح وثبَّتت الورق، وأعطاها الملاحظ مجموعة من الأوراق وفيها الأسئلة المكتوبة بطريقة برايل. فعلت هذا الأمر في أقلّ من دقيقة؛ لأنها معتادة عليه، فلم تكن لديها أدنى مشكلة عندما دخل عليها الملاحظان. كانت رابطة الجأش. مستعينة بخالقها. تعرف طريقها. محدِّدَةً هدفها، واثقة من نفسها.

المسطرة لها جزءان، جزءٌ يوضع خلف الورقة، وهو مفرَّغ بالكامل؛ حتى يسمح بنفاذ الكلمات إلى سطح الورقة، والجزء الآخر مقسّم إلى خانات. هي خانات الحروف، والأداة التي تستخدم في الكتابة هي مسمار دقيق، توضع مقدمته المدبَّبة داخل فراغ الحرف، أو الخانة التي تمثل الحرف، وتمسك هي بالطرف الأعلى منه، الذي يحتوي على شيء يشبه الكرة، تقبض عليه سلمى بثلاثة أصابع، وتضغط فتثقب الورقة، وتشكِّل بذلك حرفًا بارزًا، ومع كل كلمة كانت تكتبها كان يظهر صوت كصوت آلة التلِّغراف القديمة التي كان المصريون يستخدمونها في مكاتب البريد. تلك التي تطورت إلى الرسائل المعروفة عبر الجوال: كواتس آب، وفايبر، وماسينجر.

بعد انتهائها من الكتابة، صنعت سلمى عدة دوائر غير مكتملة، وعدة أشكال منتظمة، لم يفهم الملاحظ الواقف منها شيئًا واحدًا! لكنها كانت تعي وتفهم ما تفعل.

أخذتها الحماسة وانقطعت عن العالم، حاول الملاحظ ان يسألها إن كانت تريد أي شيء، فشكرته بذوق وبمنتهى الأدب قالت: كل ما أطلبه من حضرتك هو الهدوء التام حتى أركز في الأسئلة. لو سمحت.

كانت تضع يديها الاثنتين بعد انتهائها من كلِّ صفحة لتراجع ما كتبته، وبعد انتهاء امتحان اللغة العربية. كان خالها ينتظرها، خرجت من لجنة الامتحان بصحبة إحدى العاملات التي كانت تمسك أحد ذراعيها؛ لترشدها إلى الطريق. سلَّمتها لخالها، الذي أخرج مبلغًا، وأعطاه للعاملة. وفتح لها باب السيارة لتجلس في هدوء، وفرحة. لم تكن تراجع المعلومات، والأسئلة الخاصة بالمواد؛ بل كانت سعيدة جِدًّا بسبب مرورها بشوارع القاهرة المزدحمة، وأصوات الناس، وصخب السيارات. كان خالها يصف لها الشوارع والميادين التي يمرّان عليها بالسيارة كل صباح . وهي تكاد تطير سعادة، وحسدت نفسها على ما هي فيه من السُّؤْدُد. كان تحلم!

وعدها بزيارة معالم القاهرة بعد الانتهاء من كل امتحان. لم تحمل همَّ الاختبارات، بقدر ما كانت مهمومة بزيارة كلّ شبر على أرض القاهرة.

في آخر يوم للامتحانات. تخرج من اللجنة كالمعتاد. يستقبلها رفيق فرحًا مبتسمًا:

- هاه، ما الأخبار؟ هل وفِّقت في الامتحان؟ وما أخبار الأسئلة؟

- خالو، دعك من الأسئلة، ودعنا نذهبْ للجامع الأزهر! شوف، أوّلًا. أريد أن أشرب عصير القصب، فأنا جسمي يحترق من الحرّ!

- أنا طوعُ بَنَانك سيدتي.

يضع يديه على مقود سيارته، وينطلق في شوارع القاهرة. يترك العتبة متَّجهًا إلى شارع الأزهر. يخبرها عن مكان المسرح المصري" جورج أبيض" الذي يتعدى عمره المائة سنة. ومن الناحية الأخرى "مسرح القاهرة للعرايس". ثم هناك جراج قميء هو جراج العتبة. وكأن الحكومة لم تجد مكانًا آخر لبناء هذا الحوت الخرساني سوى هذا المكان!

تؤذيها الشمس والحرارة، فتطلب من خالها أن يكمل وصفه لشوارع القاهرة الفاطمية بعد أن يغلق زجاج السيارة، ويفتح التكييف.

- شوفي.

تضحك بملء فيها قائلة:

- أنا لا أشوف يا خالو. هل نسيت؟

- هههههههه. هذا شارع عبد العزيز. أشهر شارع تجاري في قلب القاهرة والبوستة قبله بحوالي خمسين مترًا. ومتحف السكة الحديد، والمطافي. وسوق الخضر والفاكهة بأول شارع محمد علي. الذي بآخره مسجد السلطان حسن وجامع الرفاعي المدفون فيه الملك فاروق وعائلته.

- ضع في حسبانك سوف نزور كلّ هذه المزارات واحدًا واحدًا . لن أتركك.

- هههههههههه. أوامرك سيدتي الدوقة.

ينطلق إلى شارع الأزهر، ويقطعه في تُؤَدة وهدوء؛ خوفًا على الأرواح التي تسير في هدوء، وملل!

تجار "المانيفاتورة" والأقمشة، والبهارات على جانبي الشارع. وزحمة الشارع، والحركة الدائبة تكاد تصمّ الآذان!

رجب العطار. الدكان العريق الذي تحوّل لمؤسسة عامرة تحجّ إليها النساء من جميع أحياء القاهرة؛ بل ويأتين إليها من المحافظات؛ لجودة ما تعرضه من أنواع العطارة، كانت المؤسسة تعلن عن نفسها في نهاية السبعينيات من القرن العشرين؛ لكنها الآن أكبر من الإعلانات! فلا تحتاجها.

وكالة الغوري، وما حولها من دكاكين، وحوانيت متراصّة عتيقة، والعمال يدفعون العجلات الحديدية حاملين بضائع من كل لون وصنف، كل ذلك كان يخترق زجاج السيارة، ويتحدى برودة التكييف. ويلقي زخمه في روحها، وهي في نشوة. حالة من الجمال، والروحانية، والعشق، والشجن تنسكب في روحها. وتجلل كيانها. فتصفق فرحةً جزلى.

ثم أشهر دور الثقافة في الوطن العربي. هنا كانت مكتبة عيسى البابي الحلبي، والمكتبة الأزهرية، ودار الحديث، ودار السلام. والعشرات من المكتبات التي كانت تروي عطش الثقافة لدى المصريين، وتوفر مئات؛ بل آلاف الكتب للمجاورين

" طلبة الأزهر". على تلك الأرض كان يمشي شيوخ الأزهر العظام، بخيت المطيعي، ومحمد الصادق عرجون، والمراغي، ومصطفى عبد الرازق، ومحمد أبو زهرة. هنا تعلم طه حسين. وأحمد شاكر. ومحمد متولي الشعراوي.

تربت على كتفه:

- أين عصير القصب؟!

- حاضر، حاضر، اهدئي. لم يبقَ أمامنا إلّا دقيقتان. المشكلة هذا الازدحام الخانق! أقاموا جسرًا، فخنق الشارع أكثر فأكثر!

لم أقل لكِ إننا عبرنا منذ قليل تقاطعًا يكمن قبله من الناحية اليمنى أشهر متحف للفن الإسلامي في قارة أفريقيا، ثم المناصرة أشهر منطقة لصناعة الأثاث في القاهرة ومن الناحية اليسرى هناك "بين السورين" حيث تجارة اللحوم بأنواعها. وسوق "حمَّام التلات". وتجارة لعب الأطفال والخرداوات. وأدوات التجميل والعطور.

- يااااااااااااااااه. كل هذا في مكان واحد!

- يبدو أننا وصلنا.

يدخل إلى أحد الشوارع الجانبية، ويترك السيارة؛ هروبًا من تربُّص عساكر المرور الذين يملؤون ميدان الحسين، حيث يقع الجامع الأزهر.

- هاه. وصلنا؟

هيا بنا أيتها الدوقة، فقد حطَّت الطائرة رحالها على أرض قاهرة المُعِزّ، حيث المنطقة عمرها أكثر من ألف عام ويزيد.

تصفق فرحة، وهي تفتح باب السيارة. وتنتظره كي يأخذ بيدها ليدخلها هذا العالم النوراني الحالم!

تضع يدها في يده وتمسك كفه في سرور.

- أين العصير؟

يتوقف أمام أحد المحال. تسمع طنين بعض النحل، وتقترب نحلة بجوار أذنها فتهش بيدها خائفة.

- ما هذا يا خالو؟

- لا تقلقي هذه نحلة تَطِنُّ حول العصير!

- أريد أكبر كوب لديه!

- حاااااااااااااضر.

يطلب كوبين يطلق عليهما المصريون " شوب". بخمسة جنيهات!

- يضع لها (مصَّاصة)، لتسحب بها العصير؛ لأنه لا يضمن نظافة الكوب الذي بحجم برميل ثقيل. فتطرح (المصاصة) أرضًا!

إنها لا تريد أن يفصل بينها وبين هذا العصير فاصل. تسمّي الله. ثم تشرب في نشوة.

تضع شفتيها على فوهة الكأس الكبيرة المثلجة، ذات الرغوة المنعشة. تشرب في سعادة غامرة، فتعلق الرغوة بشفتيها، تصنع رغوة العصير قوسًا أبيض فوق شفاهها. فيضحك خالها:

- هههههههه عندك شنب. هههههههههههه، ثم يحاول أن يمسح هذا الشنب، فتمنعه!

تتوجَّه إليه أثناء مصِّها للعصير بصوت مسموع يسمع من حولها، كانت غير عابئة: - لتضع في حسبانك يا خالو. لن نترك شبرًا واحدًا في هذا الحيِّ إلَّا ونزوره. ونتعرف عليه!

تقف عندها امرأة عجوز، وتشير إليها قائلة لخالها رفيق:

- إلهي يكرمك يا بيه، الله يعطيك ويبارك في ابنتك.

تفهم ما تريد المرأة، فتخرج من جيبها ورقة من فئة الخمسين جنيهًا، وتهمُّ بإعطائها للسيدة العجوز؛ لكن خالها يحاول منعها، ويقول: هذا كثيرٌ يا سلمى!

تردُّ عليه في ثقة. أنا مبسوطة يا خالو، وأريد لكلِّ الناس أن يفرحوا فرحتي، وعسى أن تنالني دعوة من هذه الطيبة.

ينظر لها في عَجَبٍ ظاهرٍ. ويعطي السيدة الخمسين جنيهًا كلها. لا تصدق المرأة نفسها، وتهمّ بتقبيل يد الرجل، فيمتنع. وتنطلق يلهج لسانُها بالدعاء للاثنين بالصحة والفرح، والعافية.

تقول له بعد أن مضت المرأة:

- أرأيت يا خالو؟ تلك الدعوات من هذه المرأة الطيبة لا تعادلها كنوز الدنيا.

تستمع مشدوهة، وتملأ أذنيها من صخب الشارع وزحمته، فقد ملّت هدوء التجمع الخامس، وبرودته رغم قيظ الصيف.

هي لا تريد لتلك اللحظات الجميلة أن تُمْحَى من ذاكرتها. يأخذ لها بعض الصور من هاتفه المحمول. تسمع صوت فلاش الكاميرا؛ فتتخيل نفسها واقفة في وضعية معينة. مبتسمة، وعليها طربوش "أحمر بزرّ" يلبسه الأطفال في هذه المنطقة ويلعبون به، تتخيل نفسها طفلة تلبس فستانًا أحمرَ خفيفًا، وجوربًا أبيضَ ناصعًا، وتحمل على كتفها شنطة طفولية خضراء جميلة مزركشة "بالترتر"!

لا تريد لعصير القصب أن ينتهي. تنتبه إلى صوت خالها:

- هاي. سنتأخر.

- لسة. أحضر لي "مشروب الخروب البلدي، لا أريده من الصناعي".

يطلب لها واحدًا، وعليه قطع الثلج التي تغطيه حتى حافته، وتغرقه الفتافيت، تتلذّذ بشربه، وتسمع صوت عبد المطلب: "ساكن في حيِّ السيدة وحبيبي ساكن في الحسين، وعشان أنول كل الرضا يوماتي اروحله مرتين. مالسيدة لسيدنا الحسين" تطير من السعادة، وتعيش أجواء تلك الأغنية بكل حواسها.

تخلع حذاءها، وتستعد لدخول الجامع الأزهر، يسندها خالها. ويتوجه بها إلى داخل الصحن، يتوقفان، فتشعر بسخونة الرخام تحت رجليها، فترفع واحدة، وتضع أخرى ضاحكة:

- ما هذه السخونة. يااااااااه هههههههههههههههههه

- يضحك خالها. الحرارة اليوم ٣٨ يا سلمى، ثم يصف لها مآذن الجامع وقبته العتيقة. ويمرَّان على الأروقة. رواق المغاربة. والرواق الشامي، ثم العراقي.

يدخلان إلى ساحة الصلاة بالمسجد. ويصحبها إلى القِبْلَةِ التي تعدُّ آية من آيات الجمال في الفن الإسلامي. يصعد بها بعض الدرج، فتنبهر بعظمة البناء، وتتحسَّس المنبر العتيق، ذلك المنبر الذي وقف عليه الشيخ الظواهري، والشيخ محمد الخضر حسين. والإمام محمد عبده، وإسماعيل صادق العدوي، ومن السياسيين جمال

عبد الناصر وقت العدوان الثلاثي على مصر.

تتذكر الشيخ محمد متولي الشعراوي، ودروسه حول تفسير القرآن، وحلقات تعليم القرآن.

عن يسارها قعد حوالي خمسة عشر رجلًا، يتعلمون القرآن الكريم وأحكام التلاوة من أحد الشيوخ.

وقريبًا من أحد الأعمدة تجلس مجموعة من النسوة يتعلمن الفقه مع شيخ آخر.

وبعيدًا عنهن مجموعة من الطلبة الذين جاءوا من جنوب شرق آسيا يتعلمون العلم الشرعي.

ما زال الأزهر عامرًا بالعلم، والمعرفة والنور رغم مرور أكثر من ألف عام على بنائه، درَّس فيه ابن حجر العسقلاني دروسًا في شرح صحيح الإمام البخاري، وحضر إليه كثير من العلماء والطلبة يزيد عددهم على الملايين. آلاف الشيوخ والعلماء كانت لهم مواقف ثورية كالشيخ المراغي، الذي كان يجلس مادًّا رجليه في وجه الملك فاروق، ولما سُئِلَ عن ذلك. كونه لا يخشى سطوة الملك، فقال قولته المشهورة: (من مدَّ رجليه لا يمد يديه!).

والشيخ محمد الخضر حسين، شيخ الأزهر غير المصري، والشيخ عمر مكرم نقيب الأشراف بمصر، الذي طارده محمد علي لما علم بمحبة الشعب له، وتنفيذهم لأوامره. كونه الذي تصدى لحملة فريزر ١٨٠٧م بينما محمد علي يطارد فلول المماليك في الصعيد!

والشيخ السادات، وغيرهم ممَّن تصدَّوْا للاحتلال الإنجليزي، والفرنسي. كانت لهم مواقف ملحمية، وبطولية يفخر بها أبناء مصر جميعًا.

كانت تستمع إلى خالها، وهو يشرح لها في جلال، وروعة، وعرفان.

لم تكن ترِيد أن تعود إلى هذا التجمُّع الموحش الذي تعيش فيه منذ سنين!

كانت تودُّ لو بقيت في هذا الحي التاريخي الذي يحكي عظمة مصر. ذلك الحي الذي نبع منه العلم. وخرج منه سراجٌ يضيء الدنيا بالهدى والنور.

لكن الساعتين أوشكتا على الانتهاء. وكان لزامًا أن يعيدها خالها للبيت!

لم يكن أبوها يهتمّ كثيرًا لمسألة الامتحانات، أو تأخيرها، فما دامت مع خالها، فهو مرتاح البال!

كانت أيام الامتحانات التي استمرت أكثر من شهر، من أحلى أيام حياتها، حيث زارت حيِّ السيدة زينب، وشارع ابن طالون "ابن طولون" وفيه الجامع الشهير ذو المئذنة الفريدة التي لا يوجد مثلها إلَّا في العراق.

وذهبت إلى قلعة صلاح الدين الأيوبي، وتعرفت على مسجد سارية الجبل، الذي كان صحابيًّا، وتُروي عنه أسطورة كان بطلها سيدنا عمر بن الخطاب، حيث كان هناك مجموعة من الرومان يريدون الفتك بإحدى سرايا المسلمين التي كان سارية قائدًا لها، وكان عمر وقتها على المنبر، فكشف الله للمُلْهَم الموهوب عمر الأمور، ورأى الجيش الروماني وهو يطارد تلك السَّرِيّة، فصرخ عاليًا: الجبل يا سارية. الجبل يا سارية! ويروي كتَّاب التاريخ أن هذا الصحابي، احتمى فعلًا بجبل المقطم، وكان أن نجا، وسريته من القتل المحقق على أيدي الرومان. ولما مات هذا الصحابي، أقام المصريون له مقامًا، وبنوا عليه مسجدًا سُمِّيَ ب" مسجد سارية الجبل".

ودخلت سلمى إلى المتحف الحربي المصري، الذي يحكي بطولات الجيش منذ العهد الفرعوني. وانبهرت بما سمعت من خالها عن أعمال الجيوش المصرية عبر العصور.

ثم أخذها إلى المتحف المصري بميدان التحرير، وكان انبهارها لا يفوقه حَدٌّ،وزاد فخرها انتماءً، وولاءً، وعرفانًا بعظمة هذا الشعب العظيم الذي علم الإنسانية الحضارة منذ ٧٠٠٠ عام.

بعد الامتحانات كانت تتحرَّق شوقًا لمعرفة النتيجة، وحان موعد إعلانها، جلس خالها بجانبها، ووضع رقمها في الباحث، وما هي إلّا ثوانٍ حتى ظهرت، صرخ بعدها خالها فرحًا.

- آآآآآآآآآآآآآآآآآآ ألف مبروك يا سلمى!

تحتضنه باكية من أثر الفرحة:

- كم المعدل يا خالي.

- ناجحة بنسبة ٩٩ بالمئة.

دخلت في حالة هستيرية من البكاء والضحك المتواصل.

احتضنت خالها مرة أخرى، وأمطرته بالقبلات التي أغرقته. اختلطت القبلات بالدموع. لم تدرِ ما تقول لخالها:

- شكرًا يا حبيبي. لا أدري ما الذي أقوله؟ لقد كنت نعم الأب، والأخ والصديق، لقد عوَّضني الله بك عن الأب والأم.

- هذا النجاح نهديه لأمك يا سلمى. أنت لا تدرين الآن مدى سعادتها، وفرحتها بما حققت.

تقف تجاه القبلة، وتسجد لله سجدة شكر؛ عرفانًا بفضل الله عليها.

احتفل معها خالها، وظلَّ يرقص معها حتى حضر أبوها فجأة. ووجدهما على تلك الحال.

وبنظرة تحدٍّ ينظر رفيق إلى نعمان قائلًا:

- ألف مبروك يا نعمان، ابنتك حصلت على ٩٩بالمئة في الثانوية العامة!

لم يعلق بأيٍّ شيء، ولم يظهر على وجهه أي تعبير يذكر. ولفَّ نفسه متوجّهًا إلى غرفته!

حالة من الإحباط تصيب سلمى، وخالها؛ لكنه يخرجها من تلك الحالة، ويقوم بلف مؤشر التسجيل على أغنية عبد الحليم:

" وحياة قلبي وأفراحه. وهناه في مساه وصباحه. ملقيت فرحان في الدنيا زي الفرحان بنجاحه.". والتي غناها في فيلم "الخطايا".

يمسك يدها، ويحملها بين يديه، ويدور فرحًا معها وبها.

تحاول أن تلهي نفسها بالأغنية؛ لكنَّ في نفسها غُصّة مؤلمة تخفيها خلف ضحكة مزيفة بائسة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧- نشوة المنتصر

لم يسمح نعمان لموقف التحدِّي الذي وقفه رفيق بأن يمر مرور الكرام. وصمَّم على تدبير حيلة. يحصل من خلالها على الشريط الذي عليه محاولة قتله لابنته.

استدعى رئيس موظفي الأمن بالمؤسسة. وكان مقرّبًا منه، ويعرف جميع خباياه، حكي له قصة الشريط، وطرأت على عقل بشير رئيس شعبة الأمن بالمؤسسة فكرة كان ملخصها: أن يذهب بنفسه إلى بيت رفيق، ويقوم بقلبه رأسًا على عقب؛ حتى يحصل على هذا الشريط الذي يثبت محاولة القتل بالصوت والصورة.

بعدها بأربعٍ وعشرين ساعة فقط يدخل بشير متهلّل الوجه، حاملًا في يده الشريط،

فقد وعده نعمان بخمسة ملايين جنيه نظير هذه المهمة الناجحة!

لكنه لم ينسَ أن يأخذ ورقة "ضد" فيها اعتراف من بشير باختلاس عشرة ملايين جنيه!

هو لم يفعلها؛ لكن نعمان قال له: حتى لا تخدعني، وأكتشف فيما نستقبل من أيام، أنك تحتفظ بنسخة من هذا الشريط.

أقسم له بشير بأنه لم يفكر بهذا الأمر؛ لكنه أصرّ على توقيعه على ورقة الضد!

عركته الحياة حتى أنه لم يكن يخطو خطوة إلَّا ويعمل لها ألف حساب.

في اليوم التالي. تعمَّدَ الاتصال برفيق، وقد انتشى منتصرًا:

- رفيق. اعتبر اتفاقنا كأن لم يكن!

- أيُّ اتفاق تعني؟!

- انسَ أن تذهب ابنة أختك إلى الجامعة!

يحمرُّ وجه رفيق وهو يرد عليه:

- إذا كنت قد كسبت الجولة. فلنا جولات أخرى قادمة يا نعمان. أعرف أنك قد وجدت الشريط. ولكنْ كلّ آتٍ قريبٌ. وسوف يحاسبك الله على كل ما ترتكبه في حق هذه المسكينة المظلومة.

يغلق الهاتف في وجهه، وهو يضحك ضحكة شيطانية. ساخرًا منتصرًا!

يحترق رفيق من أعماقه، ويحس أن كل ذرة من دمه قد تحولت إلى ماء نار يذيب عروقه. فيتَّصل بابنة أخته سلمى ليخبرها بما فعله أبوها، فترد في عدم اكتراث:

- يا خالي، وهل كنت تظن بأني سوف أتركك تذهب بأبي إلى السجن؟

يصعق ممّا تقول.

- أنا أكاد أجَنّ يا سلمى! كيف تقولين مثل هذا الكلام وقد حاول قتلك؟!

- يا خالي. إنه أبي. أبي!

تخنقها العبرة فتبكي، ويسمع نحيبها. فيرقُّ قلبه:

- اهدئي يا قلبي. لن أفعل شيئًا، وسأتركه لخالقه كي ينتقم منه، وعند الله تجتمع الخصوم.

- ولم لا نطلب له الهداية يا خالي؟! أنا حائرة ولا أدري ما أفعل! هو أبي وأنت خالي، والخلافات التي بينكما تكاد تقتلني. أكاد أجنّ!

- اهدئي يا حبيبتي. ولنفكر ماذا سنفعل في هذا الأمر.

تمسح دمعتها. وتتكلم في إصرار وحماس وعزيمة:

- إذا كان قد حرمني من دخول الجامعة، فسأفتح جامعة في الفيلَّا!

يستفسر منها معجبًا بلهجتها الحازمة المتحفزة:

- كيف ذلك يا حبيبتي؟!

- ستحضر لي مِنْ يقوم بتعليمي في الفيلَّا!

- وهل سيقبل أبوك بهذا الأمر؟ لقد منع عنك الخادمة التي تعينك في شئون البيت وتقضي لك حوائجك. هل تعتقدين أنه سيقبل أن يدخل المدرسون ويخرجون؟!

تفيق من حلمها الوردي في سرعة، وتعد الجواب لخالها:

- هناك حل آخر، أن يسجل المعلمون الدروس، وأذاكرها ، ثم يعطوني اختبارات، ويتم تصحيحها. وإعطائي المعدل أو الدرجة. ما رأيك؟ أو من الممكن أن يأتي المعلمون في غير وجوده. ونجلس في مكانٍ مُنْزَوٍ، وبعيدًا عن الكاميرات!

- ولكن هذا الموضوع سيكلفك الكثير يا سلمى.

- لا يهم. فميراثي من أمي جاهز في البنك، ولم أقربه حتى الآن.

اتفق رفيق مع المعلمين، والمعيدين بالجامعة، فقد كانت تريد دراسة اللغات.

أتقنت الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية. وفكرت في دراسة الروسية. وبدأت في تعلمها.

اطلعت على الأدب العالمي بعد أن قرأت للأدباء والكُتَّاب العرب: إحسان، ومحفوظ، والعقاد ، وطه حسين، والمنفلوطي، وأحمد حسن الزيات، ويوسف إدريس، ويحيي حقي، قرأت لنزار. وهامت مع محمود حسن إسماعيل، وبدر شاكر السياب، وصلاح عبد الصبور، ونازك الملائكة. وتحمست لصلاح جاهين، وفؤاد حداد، والتونسي، وفضّلت عليهم جميعًا مصطفى صادق الرافعي.

قرأت لتشيكوف، وبرتراند راسل، وميلر،وجان جاك روسو، وعدَّت شكسبير رائدًا للشعر الإنجليزي بلا منازع. وأعجبت بموليير، وموموبسان. وكرهت نيتشة. وتأثرت بهمنجواي.

من لم تستطع الحصول على كتب برايل من مؤلفاته، كانت تطلب من خالها أن يسجل لها من موقع اليوتيوب كتبه المُسجّلة. قضت ثلاث سنوات حصَّلت فيها ما لا يستطيع خريج كلية الآداب، أو دار العلوم أن يحصله من ثقافة.

قرأت في التاريخ موسوعة سليم حسن عن الحضارة المصرية القديمة، وقصة الحضارة لول ديورانت. وموسوعة التاريخ الإسلامي لمحمود شاكر. وموسوعة الحضارة الإسلامية لأحمد شلبي. وكل هذا لم يشبع نهمها للعلم!

جعلت همَّها كله في الكتابة . فقطعت ليلها، ونهارها في تأليف أول رواية لها. وطبعتها.

لما صدرت روايتها الأولى كانت كالأم التي تستقبل وليدها الأول. احتضنتها في حنان بالغ. واستشعرت ملمس الورق. وتشمَّمت رائحته. وتخيَّلت الغلاف المليء بالألوان. والصورة التي زينتها بريشة رسام مشهور. عدّت أوراق الرواية ورقة ورقة كأنها تعد سنين عمرها الفائت، وتحلم بسنينها الآتية. قفزت من الفرحة عندما أبلغها خالها بحجم المبيعات. قررت أن تتبرع بريع تأليف الرواية لإحدى دور رعاية الفتيات اللَّاتي حُرِمْنَ مثلها من نعمة البصر. وانطفأت في أعينهنّ بهجة الحياة. وكانت قد انتهزت الفرصة، وذهبت إلى تلك الدار، وتعرفت على بعض زميلات المحنة. واتخذت منهن صديقات لها، تتحدث إليهن عبر الهاتف، وتطلب من خالها أن يصطحب معه بعض الهدايا ليعطيها لهن؛ مدخلًا بذلك الفرحة على قلوبهن التي تنوء بأثقال الظلام، والاحتياج، والعوز.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨- اللقاء الأول

مختفيًا عن العيون خلف إحدى الأشجار التي تملأ حديقة الفيلَّا، جالسًا في الظل يطفئ جوعه من التفاح والموز الذي سرقه من الثلاجة. حاول النوم بعد الأكل؛ لكن الحرَّ هاجمه في ضرواة، وأحسّ بالعرق اللَّزِج ينزل على رقبته، فيلسعه الملح، فيتأفّف، قرر أن يذهب إلى رشاش الماء الذي رآه مفتوحًا من بعيد.

قرر أن يجازف هذه المرة. نظر إلى ساعة يده، فوجدها تشير إلى الحادية عشرة. حدث نفسه:

- ياه! أعوذ بالله ما هذا القيظ؟ الطف يا رب! إذا كانت الحرارة بهذا المعدل، فكيف سأتحملها عند الثانية ظهرًا عندما تغدو الشمس عمودية؟!

لي هنا يومان. ولم أعد أحتمل. لا بُدّ من إنجاز مهمتي في أسرع وقت! عليّ أن أجد أيَّ شيء يدين هذا القاتل نعمان بأيِّ شكل.

يمسك بخرطوم المياه المفتوح، ويضعه في فتحة قميصه. لكن الماء ينزل ساخنًا عبر القميص مبلِّلًا البنطلون الذي يلبسه، فلا يهتم . يخلع الحذاء والجورب، فيصبح حافيًا. يمشي على الأرض الطينية في سعادة جيئةً وذهابًا. له يومان لم يأخذ حمامًا باردًا. مهنته عجيبة ومدهشة. ومرهقة متعبة. يومان لم يضع نفسه تحت "الدُّش"!

قرفان من نفسه. لا يريد لأحد أن يراه على تلك الحال المذرية!

يلاحظ خروجها إلى الحديقة من باب المطبخ. فيسرع للاختباء خلف الشجرة البعيدة مرة أخرى!

تمشي متوجهةً نحو خرطوم المياه، فتجده مفتوحًا، فتتذكر أنها نسيته منذ الليلة السابقة. تمسك به، وتوجهه ناحية أحواض الياسمين. وتقف متأففة من حرارة الشمس. تترك الخرطوم، وتتجه إلى المظلة الخشبية، فتجلس قليلًا، وتسمع حركة خلف الشجرة، فتعتقد أنه القط الشرس الذي يسرق منها اللحوم. فتأخذ العصا القريبة وتتجه نحو الشجرة. يسرع بالانتقال؛ لكنه لم يلحظ أن هناك عامودًا من الحديد بجوار الشجرة، فيتعثر به، ويعلق بنطاله فيه فيتمزق, وتجرح قدمه ويقع على الأرض. يصرخ متألمًا، فتفزع صارخة، وهي تلوِّح بالعصا هنا وهناك في ضربات عشوائية غير مرتّبة:

- مممممن هنا. من أنت؟ قل لي، وإلَّا شققت رأسك بتلك العصا!

كان العامود مخصّصًا لوضع سلسلة الباب الخارجي حوله عند فتحه.

- آآآآآآآآآآآآآآآآه ! أنا. أنا. اهدئي فلن أؤذيك، آآآآآآآآآه لقد جرحني هذا العامود الذي تضعونه هنا بالقرب من الشجرة!

- من أنت؟ قل حالًا. وإلَّا اتصلت بالشرطة. هيا قل، من أنت؟!

يقوم وهو يعرج من أثر الجرح، والدم يسيل من قدمه:

- قلت لك اهدئي لن أؤذيك؛ ولكن أرجوك، أنا أنزف. قدمي قد جُرِحَتْ هل لديكم إسعافات؟

تقول حازمة:

- لن أفعل لك شيئًا قبل أن تخبرني من أنت؟ ولماذا أتيت إلى هنا؟ وما الذي تريده؟

- ياه! آآآآآآه، كل هذه الأسئلة؟ فليكن. تعالى لنجلس أوّلًا، فأنا لا أستطيع الوقوف. كان يعرف أنها عمياء، حاول أن يمسك ذراعها ليرشدها إلى مكان السقيفة الخشبية؛ لكنها قالت في غضب وصراخ:

- أخِّر يدك عني، ولا تلمسني لو سمحت!

يرفع يده عنها مسلّمًا.

- أمرك، أمرك، تفضلي، وسأخبرك بكلِّ شيء.

يتوجهان إلى السقيفة، ويجلسان. وتبدأ هي الحديث:

- والآن أخبرني، ما الذي أتى بك إلى هنا؟ ومن تكون؟ وكم بقي لك على تلك الحال؟ أنت الذي كنت تراقبني. أليس كذلك؟

كانت كأنها مدفع سريع الطلقات. أوقفها عن الكلام واضعًا كفَّه على فمها، فتصرخ مرة أخرى:

- قلت لك أخِّر يدك عني، وإلَّا سأقطعها لك.

- حسنًا، إن لم تهدئي، فلن أخبرك بشيء، وسأعود من حيث أتيت، هاه. هل أبدأ في الكلام، أم أنك ستواصلين الصراخ؟ أنا لا يهمني أن تتصلي بالشرطة، أنا لم أفعل شيئًا لكل هذا!

تتمالك أعصابها وتقول:

- وماذا عن اقتحامك للفيلّا، ألا تفهم في القانون، وتعرف عقوبة أمر كهذا؟ ما فعلته جريمة يا أستاذ يا محترم!

- أرجوك ليس هناك داعٍ للسخرية! إن الجوَّ هنا خانقٌ، وأظن أنني قد رأيت بالداخل تكييفًا، فلماذا لا ندخل، ونستمتع ببعض الهواء البارد؟ وسوف أحكي لكِ كل شيء، وأجيبك عمّا تريدين الاستفسار عنه.

- لن نتحرك من هنا. واعلمْ أني لا أهدِّد، وسأنتقل للفعل بعد القول إذا ما اختبرت صبري!

" لمَّا يجد مفرًّا من الكلام مع عنادها استسمحها في الهدوء." .

قالت بعد أن هدأت قليلًا: حسنًا، تكلم!

يبلع ريقه بادئًا الكلام، مصمّمًا على أن يخبرها بكلِّ شيء، فلن يكتمَ عنها شيئًا!

- بداية ، أعتذر على تطفُّلي عليكم بهذا الشكل. وثانيًا أعتذر عن سرقتي للطعام من المطبخ، فلم يكن أمامي حلٌّ آخرُ، فليس معي مال للحصول على الطعام، فأنا لي هنا ليلتان، لم آكل فيهما إلَّا ما وجدته أمامي بالثلاجة هههههههه

تتأفّف من كثرة كلامه، وتضع يدها على أنفها قرفًا من رائحة عرقه!

- أعلم أن هيئتي رثَّة، ورائحتي ربما تكون غير مستحبة، ويتوقف عن الكلام مشدوهًا!

- لماذا سكتَّ؟ هل طلبت منك السكوت؟ أكمل أريد أن أعرف كل شيء.

- سبحان الله! ناظرًا إلى عينيها الخضراوين. وجمالها الأخّاذ.

- ماذا؟ هل هناك شيء؟

- لا. لا. لا شيء. فقط.

- ماذا؟ قل ما تريد، فأنا أسمعك.

- أنت جميلة جِدًّا. اعذريني لم أتحقق منك جيّدًا أعتذر!

- علام تعتذر؟ تخفي ابتسامة تكاد تفرّ من وجنتيها. وتضايقها رائحة عرقه، فتدير وجهها ناحية اليسار.

- آسف .

خففت حِدَّة صوتها إشفاقًا عليه. فلأول مرة تقابل شابًّا بمفردها داخل الفيلَّا، ويتحدث عن جمالها بهذه الكلمات.

- علامَ الأسف؟ ما اسمك؟ ومن أين أتيت؟ ولماذا حضرت إلى الفيلَّا. هل تعرفنا؟

هل لك حاجة؟ قل!

- أوّلًا هذه خمسة أسئلة، ولن أجيب عن أيٍّ منها إلَّا عندما يتوقف الدم الذي ينزف من قدمي تلك!

- أووه! أنا آسفة. قم معي؛ لنَرَ أوّلًا موضوع قدمك، ثم تجبْني عن الأسئلة التي سألتها لك.

تعجّب من مشيتها مستقيمة دون اصطدامها بعائقٍ ما- رغم حالتها- تمشي بمهارة، وتفتح باب المطبخ. تشير إليه حتى يجلس على المقعد المواجه للباب.

يؤلمه الجرح، ويضع كفه في محاولة منه لمنع بعض قطرات من الدم التي بللت البنطلون الذي يرتديه، ويلطخ أرضية المطبخ!

تتجه إلى "أجزخانة" مثبتة على الحائط بمحاذاة كتفها. تمد يدها، وتخرج قطنًا، ومطهِّرًا، وحقنة خاصة بالتطعيم ضد "التيتانوس" ، و"بيتادين". وعلبة بها مضاد حيوي سريع، ولاصقًا طبيًّا تضعه على المنضدة، وتقول له:

- طهِّر الجرح جيّدًا، وضع جزءًا من البيتادين، ثم رش على الجرح هذا الرش، فهو مضاد حيوي سريع. يستمع لها باهتمام. ويبدأ من فوره في تنفيذ ما تقول. يتحدث إليها وهو يعمل:

- بسّام. اسمي بسّام.

تبتسم ابتسامة خفيفة. وتحدث نفسها:

- اسم جميل.

وتتيح له أن يكمل كلامه.

- أعمل صحفيًّا بإحدى الصحف المعارضة. يقولون عني إني صحفيٌّ مشاغب؛ ذلك لأني أدافع عن المظلومين والفقراء. أحيانًا يأتي لمقرِّ عملي بالجريدة بعض العمال الذين يُظلَمون من جانب أصحاب المصانع، والشركات الاستثمارية لمساعدتهم في رفع قضايا على من ظلمهم، فأتصل ببعض المحامين من أصدقائي؛ وهم يتطوعون للدفاع عنهم بدون مقابل.

يضع المضاد الحيوي الرشاش، فيحسّ بلسعة حارقة.

- آآآآآآآه. ثمّ أنا أقوم بحملات صحفية على رءوس الفساد بالبلد!

- أوضح أكثر.

- بلادنا تستحق أن تكون رائدة. ففيها جميع مقوِّمات التقدم. ثروات طبيعية، وأيدٍ عاملة رخيصة، وأموال – رغم ما يدَّعونه من أنها فقيرة، كذبوا والله- ولدينا أراضٍ شاسعة يمكن أن تستوعب كثيرًا من المشروعات؛ لكن، آه من لكن هذه!

لقد عشش الفساد، وباض وفرّخ في كل ركن فيها، وهنا يأتي دوري.

- وما دورك يا هُمام؟!

- لا. لا. لا من فضلك، هذه نبرة فيها سخرية أنا لا أقبلها بأيّة حال!

- آسفة. أكمل.

- لقد نذرت نفسي للدفاع عن حقوق الفقراء كما قلت سابقًا، ومن ضمن هذه الحقوق، ملاحقة الفاسدين المفسدين، وكشفهم للشعب.

إن هؤلاء الذين يقتلون شعبنا الفقير البائس، وينهبون ثرواته، دون رقيب، أو حسيب يجب أن ينالوا عقابهم. إن عاجلًا، أو آجلًا.

تستفسر حتى تفهم الموضوع من جوانبه كافة:

- هل تظن نفسك روبن هود، أم دونكيخوته؟ أفق يا هذا!

- والله العظيم أنا منتبه جِدًّا، وفايق جِدًّا، وأعلم أني قد قذفت بنفسي متعمِّدًا داخل حقل ألغام!

- ولكن هذا يمثّل خطرًا داهمًا عليك، ألا تخشى أن ينتقم منك أحد هؤلاء الفاسدين؟!

يردُّ عليها في ثقة وحزم، مؤمنًا بعدالة القضية التي يدافع عنها:

- لا يهم، فحياتي أبذلها رخيصة من أجل عودة حقوق الفقراء المطحونين في هذا البلد.

تُعجب بردِّه الحاسم. وتشفق عليه. رغم أنها لا تعرفه إلّا منذ بضع دقائق.

تتجه إلى الثلاجة، وتخرج بعض الطعام الجاف، وتضعه على الطاولة:

- لو سمحت. اغسل يدك أوّلًا قبل أن تطعم هذا الطعام. أعتقد أنِّي قد ظلمت القط الذي يشاركنا هذا البيت خِلْسَة!

يفهم قصدها، ويقول:

- أعتذر عن سرقة الطعام والعصائر؛ فالجوع كافر!

- سمِّ الله، وكُل.

يجفف يديه بعد غسلهما. ويسمي، ويبدأ في التهام الطعام، في نهم زائد، فقد استبدَّ به الجوع ..

تفاجئه بسؤال مباغت، وهو يضع أول لقمة في فيه:

- لماذا أتيت إلى هنا؟ ما الذي تبحث عنه في فيلّتنا.

يباغته السؤال، ويرتبك؛ ولكنه يتماسك رادًّا عليها في كذبٍ مفضوح:

- لقد كان بعض البلطجية يجرون ورائي بغية الإمساك بي؛ لكني استطعت الفرار منهم، ووجدت هذه الفيلَّا في طريقي فاختبأت بها، حتى ييأسوا من البحث عني!

كان كلامه غير منطقي، ممَّا جعلها تقول:

- بلطجية يبحثون عنك في التجمع الخامس!

يستمر في الكذب:

- نعم، لقد كان أحد الفاسدين الكبار يُعِدُّ لقتلي بعد أن كشفت تلاعبه في تراخيص البناء، فما كان منه إلّا أن أرسل في أثري بعض البلطجية للحصول مني على المستندات التي تدينه.

- يبدو أن هذا الرجل لن يسكت حتى يحصل على ما يريد!

- ليس من عادتي أن أحتفظ بمستندات تخصُّ عملي في بيتي، أو في مقر الجريدة، فلست ساذجًا لهذه الدرجة! أنا أعلم مَنْ أحارب، فيجب أن يسبق عقلي عقولهم؛ بخطوة، أو خطوتين؛ حتى أنتصر عليهم!

ينتهي من الطعام، ويشكرها على كرمها:

- لا أعرف كيف أشكرك، على تقديم الدواء، والطعام، والآن أتركك، وأعود من حيث أتيت، فقد مكثت هنا يومين.

تردُّ في لهفة ظاهرة (فهي لا تكاد تصدق أنها وجدت مخلوقًا آخر تتحدث إليه غير خالها وأبيها.):

- ولكن، لماذا تستعجل هكذا؟ رررربّما ينتظرك أحدهم بالخارج!

يتعجب من جملتها تلك:

- لقد أثقلت عليكِ، ولا بُدَّ لي من المُضِيّ إلى حال سبيلي، حتى لا أسبِّبَ لك أيَّ نوع من الحرج.

يوشك لسانها أن يستعطفه للمكوث معها، فهي لا تتحدث إلّا إلى اثنين في هذا العالم: أبيها وخالها! فتقول في لهفة ظاهرة:

- لا يوجد حرجٌ ولا شيء، يمكنك أن تنتظر؛ حتى تطمئن إلى أن الأمور قد هدأت، وليس هناك من يهددك، أو يمشي وراءك.

يقطع حديثهما صوت زمجرة السيارة التي يستقلها أبوها بالخارج، فيأخذها الرعب،

تضع يدها على فمها، مشدوهة مرعوبة من وجوده في المطبخ معها، ما العمل إذا وجده أبوها؟!

تشير إليه أن يخرج، ويختبئ بالحديقة كما كان يفعل، فيسرع مطأطئًا رأسَه؛ حتى لا يلمحه أبوها، فتحلّ الكارثة!

تقف السيارة عند الجراج الخاص بالفيلّا. ويضغط الأب على أزرار الريموت، فيصعد الباب الأوتوماتيكي، ويدخل الأب ليضع السيارة مكانها، يمتلئ الجراج بالدخان، فيتجه الأب إلى الشفاط الموضوع على الحائط، ويقوم بتشغيله، فيطرد الهواء الملوث من الداخل إلى الخارج، ثم يضغط على زِرٍّ آخرَ، فينزل الباب مُغلِقًا الجراج مرة أخرى.

يتجه الأب إلى الباب الرئيسي الذي يؤدِّي للصالة الرئيسية للفيلّا، وينادي عليها، وكانت منهمكة بتنظيف أرضية المطبخ، حيث رمت دلوًا من الماء حتى تتم عملية التنظيف. تنسى من سرعتها أن الأرض ما زالت مبللة، فتنجرف على الأرض وتسقط، وتبلل ملابسها، تقوم مرعوبة بسبب صوت أبيها المزعج.

- يا متخلّفة. أين أنت؟

تسرع ملبيةً نداءه في خطوات سريعة متّزنة، فلا تصطدم بشيء:

- نعم يا أبي، أنا هنا. أمرك!

ينظر إليها وهي مبللة الملابس، فيسألها في حِدَّةٍ:

- ما الذي حدث أيتها البلوى المتحركة؟ لماذا بللت ثيابك بهذا الشكل.

تردُّ في هدوء، وصوت خفيض؛ حتى لا يلاحظ شيئًا:

- لا شيءَ يا أبي، لقد كنت أقوم بتنظيف المطبخ، فوقعت على الأرض وهي مبللة. سأقوم بتبديل ملابسي، وأحضّر لك الغذاء خلال ربع ساعة على الأكثر. حاضر يا أبي.

يقول لها آمرًا:

- لا . لن أنتظر حتى تقومي بطبخ الغذاء، سآكل طعامًا جافًّا، وسريعًا؛ لأني سأخرج خلال نصف ساعة، عندي اجتماعٌ مهمٌّ مع محامي الشركة. اذهبي من وجهي وأحضري طعامًا. هيّا!

تلفُّ نفسها تِجاه المطبخ مرة أخرى، وهي تقول :

- دقيقتان يا أبي، وأحضر لك الطعام.

يشيح بوجهه عنها، ويفتح الشاشة، ويقلب القنوات، يستقر على إحدى المباريات في الدوري بين الأهلي والمصري. يجلس متابعًا لها.

تغيب دقيقتين، ثم تأتي حاملة صينية عليها بعض البيض المسلوق من الصباح، وجبن رومي قديم قطعته إلى شرائح، وبعض الزيتون، وخس بلدي، وطماطم مقطعة إلى حلقات، تضع الصينية على المنضدة بالصالة، وتتجه إلى المطبخ لتكمل تنظيفه، حتى لا يراه والدها، وهو ملطخ عندما يحضر ليلًا، فيثير الأسئلة. وتصبح كارثة محققة؛ فلن تجد إجاباتٍ تجيب بها عليه. حيث لن يكتفي بالإجابات إلَّا ويتبعها بعلقة ساخنة قد تكسر لها ضلعًا، أو تفقأ لها عينًا!

انتظرت حتى فارق أبوها الفيلّا، وخرجت للبحث عن الغريب الذي اقتحم حياتها فجأة دون سابق إنذار. وأحال تلك الحياة إلى دقائق من الإثارة وساعات من الخوف والترقب!

- أنت يا. يا.

تجد هواء مشبعًا برائحة غريبة ينفذ إليها ويلفح وجهها. كان الكلام يخرج من فمه ساخنًا محمّلًا بالإرهاق، والألم الناتج عن جرح القدم.

- طوع أمرك سيدتي!

- تعال. كي نكمل الحديث بالداخل. لم تكمل حكايتك.

يقول في ضيق (حيث إن مهمته لم تكتمل. ويعتبر وجوده معها في هذا الوقت مضيعة للوقت):

- يا أستاذة أنا أضعت وقتي هنا. ولدَيَّ عملٌ، ووقتي ليس ملكي؛ بل ملك الناس!

تردُّ متحفزة:

- لن تترك هذا المكان حتى أعرف حكايتك! وإلّا سأبلغ الشرطة. فقد اقتحمت الفيلّا دون إذن. ستترك هنا إلى السجن أيها المثقف!

- لا داعي للسخرية الله يرضى عنك.

- إذًا ادخل دون نقاش وإلَّا!

يرضخ دون مناقشة، ويفتح الباب لتدخل هي أوّلًا، ثم يتبعها.

يجلسان في الصالة الرئيسية بعد أن غادر هادمُ اللذَّات" أبوها"!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٩- انفراجة

افتتحت الحديث:

- شوف، دعني أقل لك.

ينصت باهتمام لما ستقوله بعد.

- أخبرني عن السبب الحقيقي لمجيئك إلى هنا، وأنا بدوري أعدك أن أساعدك.

توجَّس ممَّا قالته، وصمَّم على قوله الأول:

- يا أستاذة، لقد أخبرتك عن السبب، وكونك لا تصدقيني، فهذا شأنك، وهو شيء يرجع لك!

تتحوَّل لهجتها من لهجةٍ آمرةٍ مستفزَّةٍ إلى أخرى عطوفة حانية مستمهلة:

- اهدأ. اهدأ . لماذا أنت عصبي هكذا؟!

- لأنك لا تصدقينني. فلا حاجة بي للحلف، أو الكذب. ما الذي يدعوني إليهما؟!

ويهمّ بالوقوف للرحيل. فتحس بحركتة المفاجئة، وكانت قريبة منه. فتمسك ذراعه وتحس بقوته وعنفوانه!

- اجلس. دعنا نتفاهم.

- ما حاجتي لتضييع الوقت معك؟!

تغضب وتثور، ويعلو صوتها كالأطفال:

- حسنًا، إذا كنت تعتقد أن الجلوس معي مضيعة للوقت، فأنت واهم! وهذا هو الباب أمامك يُخرج فيلًا وليس جملًا! أنت لا تعرفني أصلًا!

يردُّ في هدوء. محاولًا الاعتذار، وإرضاءها:

- ومن الذي قال هذا؟ كل ما في الأمر أني ضيعت يومين دون فعل شيء. وعليّ أن أنصرف، ثم مَنْ قال إني لا أعرفك؟!

تُبْهتُ من قوله هذا، وتنتبه إلى أنه كان يراقبها منذ ليلتين خلتا:

- حسنًا، ووو وماذا رأيت؟ تقول هذا، وتجمع ثيابها عليها! وتتذكر أنها خلعت ثيابها أمام العينين المتلصصتين، وقتها لم تكن تدري أن هناك من يراقبها!

يطمئنها:

- اطمئني سيدتي، فلست من النوع الذي تظنينه! أنا بني آدم محترم، ولي أم وأخوات بنات. ولن أسيءَ إليكِ!

- ومن الذي يجعلك خيرًا ممَّن يملؤون الشوارع؟!

- لو كنت سيِّئًا، أو شريرًا لما جلست معك هكذا!

- مممماذا تقصد؟!

تخاف من لهجته وسيلان لعابه، وتسيء به الظن!

يكمل في هدوء:

- لقد شاهدت ماذا تفعلين. وصبرك على هذا الجلف غليظ القلب الذي تعيشين معه!

تثور واقفة، رافعة صوتها، مدافعة عن أبيها في غيبته:

- احفظ أدبك! هذا أبي مَنْ تتحدث عنه!

يخفف من نبرة صوته معتذرًا.

- أنا، أنا لم أقصد أيّة إهانة، أنا أصف حاله معك. وكيف يعاملك. لماذا يقسو عليك هكذا؟ أنت ابنته!

- لا، لا شأن لك!

- اهدئي يا آنسة سلمى، فأنا لم أقصد إهانته. قلت لك إن حالة من الغيظ والدهشة والضيق انتابتني لمَّا رأيته يتعامل معك محاولًا إذلالك، وتحقيرك في كل مرة يتحدث إليك فيها! معقول هذا. في حالتك هذه- وأعتذر – لا توجد خادمة لتخدمك، وأنتم – ما شاء الله- على هذا النحو من الثراء والغنى؟!

تعود لنفسها وتسرح. وتفكر فيما قال. إنها في أتون حرب دفعها إليها أبوها دون داعٍ، ليس لها أدنى ذنب في موت أمها، ويزيد حسرتها جفاء أبيها، وعجرفته وسوء خلقه، وشربه للخمر ليل نهار!

تفيق على صوت مُحدِّثِها:

- يا آنسة سلمى، آنسة سلمى، أين ذهبت؟!

- لا شيء. أكمل.

- الشاهد فيما أقول. لماذا تلك المعاملة، وهذا الجفاء، فأنت كما أرى- ما شاء الله- جميلة ومثقفة وغنية، ومحبوبة من خالك رفيق.

- وعرفت خالي رفيقًا؟!

- لم يكن لي عمل خلال تلكما الليلتين سوى مراقبتكم!

- ولماذا تراقبنا؟!

يتلعثم، ويرتجُّ، ولا يدري ماذا يقول!

- مالك صامت؟ لماذا تراقبنا؟

- لا.لا شيء. كنت أقضي وقت الفراغ. فأنا مطارد من أناس ينوون لي شرًّا كما حكيت لك. واختبأت عن أعينهم؛ حتى لا تطالني أيديهم. فهل أخطأت بلجوئي إلى هنا؟

- وما الذي يدعوك لقولك هذا؟

- هذا التحقيق الطويل الذي لا يراد له أن ينتهي. وبطني تقرقر من الجوع والعطش!

تنتبه إلى كونها لم تدعُهُ إلى تناول الغداء.

- أووه ، اعذرني أنا آسفة لم أقدم لك شيئًا للغداء!

- اعذريني لن آكل شيئًا!

تسأل في استغراب:

- ولِمَ؟ هل غضبت؟

- لا. لكني لن آكل شيئًا إلَّا إذا أكلتِ معي!

مساحة القرب تزداد ضيقًا، وقلبها الذي ما عرف الحنان قطّ من أحد غير خالها. بدأت قطرات الندى تتساقط عليه، وتتزاحم لتزيل عناء إحدى وعشرين سنة من الخوف والقلق والأنين والغربة والعذاب. لا تدري لماذا تأخذ على هذا الغريب بهذه السرعة كأنها تعرفه منذ عشرات السنين. هذا الذي اقتحم حياتها الحزينة فجأة، ففجَّر ينابيع الشوق في روحها. كانت تحسُّ كأنها بُرْعُمٌ صغيرٌ يشقُّ الأرض، ويرتوي بعد عطشٍ، وجفافٍ دامَ سنين عددًا. ذلك البُرْعُمُ الأخضر الجميل الذي سيحيله ذلك الآتي إلى شجر وجنةٍ وارفة!

- حسنًا، ثوانٍ ويكون الطعام جاهزًا. هل تحبُّ أن نأكلَ هنا، أم في المطبخ؟

- بل هنا. فالتكييف هواؤه منعشٌ، وقد اكتويت من قيظ الشمس بالخارج! هل تريدين مساعدة من أيِّ نوع؟

تقدر له هذا العرض. وتقول مبتسمة:

- شكرًا لك. سأغيب عنك ثوانٍ معدودات.

تنشغل في المطبخ. بينما هو ينظر متفحِّصًا بعينَي الصحفي تلك الصالة الفسيحة الممتدَّة، الجميلة. ثم يفكر في التعرف على غرفة أبيها.

ينسحب في هدوء، وتُؤَدَة إلى إحدى الغرف، ويحاول فتح الباب؛ لكنه يفشل. يدير مقبض الباب. فيستعصي عليه!

ثم يجول بعينيه في باقي الفيلَّا ذات الطابق الواحد، ويعجب من هذا الثراء الفاحش. سجاجيد وطنافس، وأرضية من الرخام الأبيض الجميل بلون اللبن الصافي، وثريّات إطارها من الذهب الخالص. يلمع متحدّيًا جوع الفقراء وعِوَزَهم!

وتحف"سينييه"، وصور عالمية بالملايين، والأزهار الجميلة تغطي الأركان. ومزهريَّات عتيقة بعشرات الملايين!

وشاشة عرض تضاهي شاشات السينما. وستائر مستوردة ومطرَّزة تخلب العقول والألباب.

يؤلمه عنقه بعد هذه الجولة التفقدية للفيلَّا من الداخل؛ فيضع نظره ناحية المطبخ، فقد علا صوت قرقرة بطنه معلنة حربًا لا هوادة فيها!

تدفع عربة الطعام أمامها في خفة ورشاقة. فيهمّ ناهضًا لمساعدتها.

تقول في أمر هادئ:

- لو سمحت أعدَّ السفرة، وضع عليها الأدوات والملاعق.

- أمرك يا أستاذة.

تطلب منه ألَّا يناديها بهذا اللقب، فعمرها إحدى وعشرين سنة فقط!

يرضخ لأمرها. سعيدًا بكسب ثقتها، وتطوُّر الأمور، فمنذ نصف ساعة هدَّدتْ بإبلاغ الشرطة عنه. أما الآن تعدُّ له مائدة عامرة باللحم، والطبيخ!

تضع الشوربة في حرص على السفرة، وتقول له:

- لو سمحت اجعل الكرسي الخاص بي مواجهًا لك حتى نتحدث أثناء الأكل.

وهذا تطوُّرٌ ثانٍ!

يشكر لها إعدادها الطعام من أجله.

- لقد أعددت الطعام لكلينا، فأنا أيضًا جائعة!

هي لا تريد له أن يلحظ اهتمامها به، فكبرياؤها يمنعها من تصدير فكرة أنها مهتمة به، كونه اقتحم مشاعرها، ولم يستأذن. هذا اللص الذي حرّك لواعج نفسها وعطشها إلى أن يهتمَّ بها أحد. يتودَّد إليها. يناقشها. يمدحها. يواسيها. يفرح من أجلها. يشعرها بكونها أنثى مطلوبة. ومرغوبة. لا يحفل بعماها؛ بل يعتبره إضافة لجمالها!

يقطع سرحانها وشرودها:

- هل تكتبين الروايات؟

تدهش لسؤاله:

- ومن أين عرفت هذا أيضًا؟

- لاحظتك تكتبين حينما جئت إلى هنا. والله لم أقصد اقتحام حياتك. ما هو إلَّا فضول التعرف على هذا البيتن، وأهله!

- يبدو أن فضولك هذا سيقضي عليك!

تحدث نفسها: " بل هي تريده أن يقتحمها، وأن يلقي حجرة في مياه حياتها الآسنة." تلك الحياة التي لم تعرف سوى الألم، والحرمان من العطف، والحُنُوّ!

تسأله راغبة في أن يحدثها. ويواصل الكلام:

- وماذا عرفت أيضًا عني؟!

- أنتِ تحبين الاستماع لأم كلثوم، وأغنيتك المفضلة " شمس الأصيل" أليس كذلك؟

- وماذا أيضًا؟!

أحس بالحرج، فقال معتذرًا:

- ووو. و تكتبين حاليًا الرواية الثانية. أليس كذلك؟ عذرًا يبدو أنني تجاوزت حدودي!

- لا. لا في الحقيقة أنا مستمتعة بحديثك.

أحست بالحرج بعد جملتها الأخيرة، فهذه أول مرة تنفلت منها الكلمات، وتخرج من عقالها دون حساب أو تفكير. فلا تستطيع إلجامها، أو التحكّم فيها.

كانت تَوَدّ لو حدثها عن نفسه؛ لتسْبُرَ أغوارَهُ، وتعرفَ مكنون نفسه.

قالت: أنا لا أعرف شيئًا عنك على فكرة!

- كيف ذلك، وقد قلت لك إني صحفي بجريدة معارضة؟

- لا أقصد. أنا أسأل: هل لك أسرة؟

فهم مقصدها:

- اسمي "بسام الزامل". أعزب حتى الآن. ولي أم عادية لا تعمل، فلقد اكتفت بتربية أبنائها، ولي من الأخوات ثلاث، رقية، وإحسان، وجميلة آخر العنقود بالجامعة، أما رقية وإحسان، فمتزوجتان. راتبي من عملي لا يكفيني طبعًا؛ لأني أصرف معظمه على الكتب، فأنا دودة وفأر كتب كما يطلقون عليّ. ألتهم أيَّ شيء مكتوب أمامي، قرأت في شتَّى فروع المعرفة، أدب. شعر. قصة. مسرحية. نظريات فلسفية. مذاهب وعقائد.علوم. جغرافيا. تاريخ، كله كله!

- هل قرأت لنازك الملائكة؟!

يعجب من معرفتها بهذه الشاعرة المخضرمة التي يُعْزَى إليها إنشاء جماعة الشعر الحر.

- الله أكبر. نازك وبدر شاكر السيَّاب، وغيرهما الكثير!

ولكن أعتقد أن صلاح عبد الصبور في ديوانه "الناس في بلادي" هو المؤسس الحقيقي لمدرسة الشعر الحرّ في العالم العربي.

- ربما؛ لكني أحب نازك خصوصًا في قصيدتها "الكوليرا". وتأمُّلاتها الصوفية تأسرني.

يأخذهما الحديث، ويتجاذبان أطرافه مدة ساعة. حيث فرغا من الطعام. وجلسا على الصالون الذهبي الذي ينزوي في أحد الأركان.

تنهي الحديث قائلة:

- هيّا معي لتنظيف السفرة!

يومئ طائعًا، ومرحِّبًا:

- أمرك سيدتي.

- هههههههههه قلت لك إن عمري إحدى وعشرين سنة، وألقابك هذه تجعلني أبدو امرأة عجوزًا في السبعين!

- ووولكن ماذا أقول لك؟!

- أعرف أنك تحترمني، لقد وصلتني فكرتك، وأشكرك عليها؛ ولكني أضيق بهذه الألقاب أرجوك. وإن كان لا بُدّ، فلتنادني باسمي مجرّدًا.

- حسنًا. يا سلمى.

- أرأيت؟ هكذا ببساطة. ما الداعي للتكلُّف؟! ما رأيك أن نسمع "الست"؟

- اقتراح ممتاز.

تأتي بفونوغراف عتيق أثري من دولاب موضوع بجانب لوحة كبيرة لفان جوخ، وتخرج بعض الإسطوانات القديمة السوداء من أظرف كبيرة، عليها صورة الست. لأغانٍ متعددة: أراك عَصِيّ الدمع، وقصة الأمس، ورباعيَّات الخيام، وإنتا عمري، وألف ليلة وليلة. ووضعت الإسطوانة الأولى بمهارة فائقة، ثم وضعت الإبرة على الإسطوانة، ودارت. فأخرجت صوتًا عذبًا رائقًا وجميلًا.

ظلَّا يستمعان إلى "الست" في سعادة فائقة. وبين كل أغنية، وأخرى تذهب للمطبخ لتصنعَ مشروبات مثلجة وتحضرها، ثم تجلس قبالته سعيدة فرحة. أخذهما الوقت. وأحست كأنها تلمس النجوم!

ثم يستسمحها في الاستماع لإحدى سيمفونيات بيتهوفن، ثم شتراوس. فتوافق على الفور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٠- اجتماعٌ ثلاثيٌّ

في إحدى قاعات البيوت الفارهة بمنطقة قريبة من هضبة الأهرام، يجتمع كلٌّ من نعمان، وبعض رجال الأعمال:

يبدأ نعمان الحديث:

- يا سادة أمامنا ثلاثة ملفات للحديث عنها، والتباحث بشأنها:

الملف الأول: موضوع الخبيئة التي اكتشفناها في أسيوط، نريد أن نعرف كيف سنتعامل مع كمّ التحف والمساخيط "التماثيل" التي وجدناها بداخلها.

يقول حمودة المرجوشي أحد رجال الأعمال من الحاضرين:

- معروف طبعًا كيف سنتصرف فيها. سنتصل بالخبير الأجنبي الذي سيحضر للقاهرة. ومن ثمّ يفحص المساخيط، والتحف ويكتب تقريرًا مفصَّلًا، ثم نتفق على بقية الأمور، من توريد المبالغ، ووضعها ببصمة الصوت في بنوك أوربا وأمريكا!

- خطأ. خطأ. خطأ!

(يقول نعمان. ويفند اعتراضه أمامهم في محاولة لإقناعهم):

- الحكومات الأجنبية بدأت في التدقيق في قضايا تهريب الآثار. وتتتبّع كل شحنة الآن! وتبلغ بها سلطات بلادها. ثم يتم القبض على الشبكة بكل سهولة!

ينظر بعضهم إلى بعض، ويتساءل الحاج عطية السلاموني أحد الجالسين عن خطورة الأمور والحل:

- وماذا نفعل؟ وهل من طرق جديدة للتهريب غير الطرق المعهودة؟!

يؤكد نعمان فكرته عارضًا الحل:

- الطرق التقليدية المعروفة عفا عليها الزمن الآن، وسلطات الدول الأجنبية تسبقنا في كثير من الأمور، بأجهزة التعقب والرصد والمتابعة اللصيقة!

والحل هو في إيجاد طرق أخرى للتهريب.

ينظر الجميع إلى بعضهم بعضًا، ويهمهمون، فيكمل نعمان:

- عبْرَ النيل مثلًا. لماذا لا نستغل الصنادل العائمة التي تروح جيئة وذهابًا

يتساءل عادل مالك:

- وكيف ذلك يا نعمان؟! إن العيون تترصَّد هذه الصنادل.

- يا عادل هذا الأمر. اتركه لي أنا، فَلَدَيَّ حِيَلي، وألاعيبي الجهنمية التي تجعل من الصعب اكتشاف تلك المساخيط، والآثار من خلالها.

يستمع الجميع دون تعليق. ويكمل نعمان:

- من الممكن أن نضع المساخيط في الصنادل التي تحمل الحجارة الكبيرة التي تستخدم للبناء. ولكن بعد تغليفها حتى لا تتأثر. أو تنكسر!

يستأنف نعمان الحديث مختصرًا:

- المهم وملخص ما أريد قوله. هو استغلال الصنادل لتهريب ما نريد!

- معقولة يا نعمان ما تفكر فيه؟!

يعقِّبُ عادل. وهل لديك أفكار أخرى غير تلك الفكرة حتى ننفذها؟ أنت تعلم أن اقتراح البدائل خلال هذا الاجتماع وارد!

يقول نعمان:

هناك فكرة تفلح دائمًا، ولا تستطيع السلطات تعقبها. على ألَّا ينفذها الرجال!

يسأل عادل في دهشة:

- ولماذا لا ينفذها الرجال؟

- لأنها لو نُفِّذَتْ بالرجال ستكون لافتة للنظر!

- هل من الممكن أن تشرح الأمر بغير ألغاز؟!

يكتم نعمان غيظه من عادل الذي يقاطعه دائمًا.

- هلَّا صبرت عليَّ قليلًا يا عادل حتى أوضح فكرتي؟

ثم يستأنف:

- الأمر وما فيه. أننا سنقوم بتسيير مجموعة من السيارات فيها أكفان للموتى. من عدة محافظات. ومعها تصاريح دفن "مضروبة"، وتتَّجه تلك السيارات - وفيها مجموعة من النساء بحجة دفن المتوفى خارج المحافظة- إلى عدة محافظات. من تلك التي بها مخازن لنا هناك. ونقوم بوضع ما نريد، ثم نستدعي الخبراء الأجانب والمتعاملين معنا؛ للتباحث بشأنها، وإتمام إجراءات بيعها. وعقد الصفقات.

عادل مرة أخرى: ولكن الخبراء لا شأنَ لهم بتهريب الآثار إلى خارج البلاد. هم يقومون فقط بتثمين البضاعة، ولا شأنَ لهم بالتهريب من قريب، أو بعيد.

- سنتصرف. ونقوم بتهريب الآثار مدفونةً في شحنات الخضر، والفواكه التي يقوم المصدِّرون بتوريدها للخارج. أو أية سلعة أخرى.

وهناك فكرة أخرى. وتتلخص في استغلال البيوت القديمة في تخزين الآثار، وقطع الأراضي المهجورة. ونجعل عليها مجموعة من البلطجية الذين سيحرسونها.

ينتفض طلبة الشابوري من مكانه قائلًا:

- بلطجية؟! وهل تضمن ولاءهم يا نعمان بيه؟!

- شوف يا طلبة بيه. الفلوس تفعل المستحيل! ونحن لسنا هواة. سنغري هؤلاء بالمال. ونأخذ عليهم التعهدات اللازمة. وأوراق وصور وفيديوهات. بحيث لا يستطيعون خداعنا.

يصفق الجميع لهذه الأفكار العبقرية! ويعلن نعمان أخذ الآراء حول البدء في التنفيذ.

يرفع الجميع أيديهم دليلًا على موافقتهم.

يستأذن نعمان في الانتقال لنقطة أخرى:

- الملف الثاني الذي سوف نناقشه هو ملف الأراضي:

هناك قطع أراضٍ خارج نطاق المحافظات، عرضتها الدولة للاستثمار، والبيع وفق شروط معينة. بعضها يتوافق معنا، ويدخل ضمن معاييرنا، والبعض الآخر لا بالطبع. ونريد من "عادل بيه مالك" أن يتوسَّط لدى معارفه المسؤولين؛ لترسية العطاءات علينا؛ حتى نفوز بتلك المساحات بمبالغ مهاودة وشروطٍ مُيسَّرَة.

يلتقط عادل بيه طرف الحديث معقبًا:

- أنا من ناحيتي موافق؛ ولكن هناك بعض المعارضين لا يعجبهم نشاط المستثمرين، ويحضِّرون لنا ملفَّات تتضمن استيلاءً على أراضٍ دون مسوّغ، و"تسقيع" لبعض المساحات دون علم المسؤولين؛ تمهيدًا لبيعها والمتاجرة فيها!

- وماذا سنفعل في هذا الأمر؟!

- بالطبع سنئد تلك المحاولات في مهدها، وسنرشوهم حتى يصمتوا. مناخ الاستثمار يتأثر بوجود هؤلاء، " وإحنا عاوزين نفيد ونستفيد"! قالها بلهجة سوقية مقرفة ملوّحًا بخاتمه الذهبي الثقيل الذي يلبسه في أصبعه الخنصر، ومسبحته الكريستالية غالية الثمن!

يلتقط طلبة بيه الشابوري طرف الحديث، وينتقل للملف الثالث:

- لدينا ملفٌّ خطيرٌ يا سادة، وكنت أريد أن أجعل الحديث عن هذا الملف الشائك للجلسة المقبلة؛ لكنه لا يحتمل تأجيلًا. ملف السلاح يا سادة ينتظر منا بحثًا طويلًا؛ لأن العيون كلها تترقَّب ما ينتج عنه.

يقطع الكلام عادل بيه:

- الحمد لله، لا شأن لي بالسلاح. لا أحبه، ولا أحب من يتاجر فيه.

يغضب نعمان، مهددًا:

- لاحظ أننا جميعًا في مركب واحد يا عادل بيه، وكونك لا تتاجر معنا في السلاح، لا يعفيك من كونك تغسل أموالك من المخدرات في تجارات أخرى، ولا ينبغي لك بأية حال أن تسلت يدك، وتنفضها هكذا، ما يهمنا يهمك. وما سيصيبنا، ستؤول نتائجه بالتبعية عليك!

يملأ الخوف قلب عادل، ويعتدل في جلسته، ويخفف من حِدّة كلامه، ويلين الحديث:

- يا جماعة أنا لم أقل شيئًا هي جملة خرجت مني وأعتذر عنها. فلتكمل حديثك يا طلبة بيه. وأرجو شطب هذه الجملة ممَّا قلت!

يقول الشابوري:

- لا عليك، ولكن نرجو أن نُحاسِبَ على كلامنا، فنحن لنا سمعتنا في السوق، وأقل لفظ يمكن أن يؤخذ علينا!

المهم نعود لما كنا نناقشه قبل قليل: السوق متعطشة الآن للسلاح بجميع أنواعه.

يا سادة نحن لسنا سياسيين؛ بل نحن في المقام الأول تجَّار، ومن يُرِدِ السلاح عليه أن يدفع ثمنه.

يلتقط حمودة بيه طرف الخيط. ويقترح:

- أقترح أن يسافر وفدٌ من عندنا، ونتفاوض مع عملائنا على أن نمدَّهم بما يحتاجونه، فبضاعتنا حاضرة، وفلوسهم معروف من أين يأتون بها!

- أحسنت. وكما قلت نحن لسنا جمعية خيرية. من معه المال نقدم له السلاح!

وينتهي الاجتماع دون مناقشة أحد البنود، وهو بند الاحتكار السلعي للمنتوجات الزراعية بكافة أشكالها. لأن هؤلاء الثلاثة كانوا مرتبطين بأشياء أخرى، وميعاد سفر لعادل بيه. حيث لم يستطع تأجيله، أو الاعتذار عنه.

واتفق الجميع على دعوة بعض الموظفين الكبار، والتلويح بجملة من الرشاوى لتسهيل الأمور! والتغاضي عن بعض الممارسات الاحتكارية التي يحترفها هؤلاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١١- في السيارة

بعد أن انتهى الاجتماع. جالسٌ في سيارته يجترُّ الذكريات، اجترار الجمل للطعام، في صحراء مقفرة. حارة. خانقة.

يتذكر مرح زوجته. شقاوتها، جسدها قبل أن يلتهمه الوحش الجهنمي الذي حرمه منها إلى الأبد!

يذكر غنج الخطوبة، وعبث الشباب. كانت شمسه التي تشرق عليه كل صباح.

إن طعم قبلاتها لا يزال في فمه.

لم يعد للدمع مكان بعد أن جفَّت مآقيه حزنًا عليها.

لا يزال يذكر دلعها. وعينيها الخضراوين. يذكر الطعام الذي كانت تعده له بحب – آآآآآآه!

إن ابنتها الآثمة تذكره بها. يهرب من حنانه المفقود، وحدبه وعطفه الموؤود إلى تلك الخمرة اللعينة. التي أحالت نفسه كقطعة قماش مهترئة!

لا يحس طعمًا للحياة، فقد سلبت روحه معها إلى قبرها. قرأ عن بعض المعتوهين الذين ينامون في قبور أزواجهم حزنًا عليهم. وقرأ عن قرية تصنع عيدًا لمقبوريها! فيخرج سكانها هياكل موتاهم من قبورهم، ويلبسونهم ملابس العيد، والقبعات المزركشة، ويحتفلون بالشموع والموسيقا. وموتاهم يؤنسونهم في ذلك العيد!

وأولئك الذين يجمِّدون موتاهم، أو يحنِّطون أجسادهم كالفراعنة، كان يطرد كل تلك الفِكَر من عقله البائس الحزين!

أيُّ جنون، وأيُّ سفه!

تطفر عينه من جديد بدمعات تتحدر على وجنتيه، فلا يستطيع سجنها، أو إطلاقها.

الحيرة، والضيق يسلمانه إلى قاضي الروح الذي كتب عليه الشقاء، والعذاب طوال حياته.

فكر بالانتحار أكثر من مرة؛ ليلحق بمعشوقته الذي تعبَّد في محراب جمالها؛ لكنه يعود ويتراجع. هو جبان يهاب الموت. بينما حبيبة روحه كانت أشجع منه، فرحَّبت به غير هيَّابة، ولا وجلة!

يذهب إلى قبرها البعيد. ويجلس ساعات يناجيها:

- يا حبيبة الروح، أكان عليك أن تخذليني، وترحلي دون وداع؟!

هل كان لزامًا عليَّ أن أقاسي الوحدة والوحشة؟!

نعم خنتك أكثر من مرة، خلال شهرين ادَّعيت فيهما ارتباطي بعمل. وتجرعت كأس اللذة الحرام؛ لكنه كان مُرًّا!

عدتُ إليك، وعرفتِ أنت بخيانتي، وعاقبتِني بخيانة أكبر. وكان ثمرتها ابنة من الحرام!

وبعد أن عدنا. حاولت الرجوع لسابق عهدي مع اللذة الحرام فما استطعت. جعلتني أرتبط بك، بعد أن تواعدنا على الإخلاص لبقية عمرنا. جعلتني أصفح عنك خلال سنتين بعد الخطيئة. واستقمتُ. واستقمتِ. أنسيتني المعصية والإثم.

لكنه الموت كان أسرع مني إليك. استكثر عليّ أن أنعم بالوداد، والألفة، والإخلاص سنوات كثيرة وعمر مديد معك! فاختطفك مني. يالقسوة الدنيا!

جربت أن أنهي حياتي، وآتي إليك، فننعم بحياة أخرى تحت التراب. لكنني ضننت بروحي عليك!

هل رأيت جبنًا أكثر من هذا؟

عاقرتُ الخمر بعد موتك. وأصبحت الزجاجة معشوقتي. وسلواي. وأنسي ومهربي، وملاذي!

أعلم أنها حرام؛ لكني أصبحت أسيرًا لها. لا يكمل يومي إلَّا عندما أفرغ كؤوس الإثم في معدتي. التي تشتعل نارًا!

إن ابنتك التي كنتِ تصلين الليل بالنهار؛ كي تُشْفَى من عماها، لا تزال مشرقة وجميلة، وحنونة!

تلك العمياء المسكينة التي تتحمَّلني، وتصبر عليّ! ابنة الحرام الجميلة البائسة العمياء!

تعلمين أني تغاضيت عن فعلتك وخيانتك!

نعم لقد عفوتُ عنكِ. وربَّيت ابنتكِ التي ليست من صلبي!

وتحمَّلت. نعم تحمَّلت أن أنسبَها لنفسي حين جئتِ إليَّ باكية تسترحمين حبنا.

كانت الخطيئة لاصقة بك كالقار الأسود، وكان العار كأنه غرابٌ يأكل جسدي. جئتني تبرِّرين فعلتك، وتدَّعين أني تركتك في لحظات ضعفك، وابتعدت عنك!

كذبتِ عليّ، وصورتني بالأناني الذي لا يحب إلَّا نفسه، وكان المال هو دافعي لتركك. أعترف أنني تركتك بعض الوقت. لكن لتأسيس مستقبلنا معًا، ولا مانع من ارتشاف بعض المتعة الحرام خلال السعي على كسب الرزق! هكذا صور لي عقلي المأفون! وزيَّن لي الشيطان الرجيم!

انتفخ بطنك. وجعلتِني أشكُّ في نفسي، وذهبت للطبيب وأكد لي استحالة أن أكون أبًا في يوم من الأيام! أنا عقيم. عقيييييييييييم!

كانت رائحة الخيانة المنتنة تفوح من خلاياك الآثمة. لكني لعشقي لتلك الخلايا قررت الصفح عنك!

ثم ها هي ابنتك تحصد المال بلا داعي!

وينتفخ رصيدها في البنك يومًا بعد يوم. وقد آليت على نفسي أن أرعى شؤونها، وأزيد مالها. الذي هو في الأصل مالي؛ فهو في النهاية سيرجع لي بشكل أو بآخر! لكنها تطلب مني أكثر من طاقتي، تطلب مني حب الأب. وهذا ما لا أستطيعه. فأنا عقيم!

نعم. عقيم من الحب، عقيم من الإحساس إلَّا بك. عقيم من البسمة إلَّا معك. أنت البسمة وأنت النور. وطالما حكم عليَّ الموت بفقدك، فسأنتقم من الموت،،

سأنتقم من العالم. سأنتقم من ابنتك التي نسبْتُها إلى نفسي، وأعطيتُها اسمي.

نعم، إنها "سلمى نعمان"؛ لكنها ليست ابنتي، ولن تكون أبدًا، فلقد حمَّلتِنِي عارًا سيظل لاصقًا بجلدي حتى أموت وأندثر. أحس كأنها كالقار الذي يلتصق بجسمي!

نعم، لقد أخفيت عن الجميع هذه الفضيحة، وتحمّلتها وحدي.

أذكر تلك الفاجعة.

كنت قد أهنت كرامتك، حينما كنا نعاتب بعضنا بعضًا في إحدى مرات الخلاف

- وأعترف أني مخطئ في هذا- وعايرتك بفقرك!

ولم تحتملي تلك الإهانة؛ وطلبت "صارخة في وجهي" أن أطلقك حفظًا لمكانتي عندك؛ لكني صفعتك على وجهك. فما كان منك إلَّا أن انهرت. وأخذتك للمستشفى حيث عانيت من انهيار عصبي، ثم تعافيت بعدها، واستعطفتك. لكنك لم تنسَيْ تلك الإهانة أبدًا. وقلت لي إن حبك قد انتهى اليوم من قلبي. لكني قدمت لك عدة تنازلات منها أني كتبت لك نصف نصيبي من شركتي الخاصة التي أقمتها على كتفيّ. ولولا هذا ما كنت تقبلين بأن تعودي معي إلى البيت.

وامتنعت عني. وقتها. وكنت أتمزق، وأخطو على الجمرمن صدِّك لي. لقد كنت أتنفسك هواء، كنت بالنسبة لي كقطرات الندى التي تنزل على الأرض اليباب، فتحييها بأمر الله.

ليتك نسيت لي تلك السقطة. نعم أهنتك واعتذرت! ألم يكن هذا كافيًا. لكن صدودك عني قد أشعل نار الرغبة في نفسك. وكراهيتك لما فعلت، وكرامتك التي سفحتها عند أول امرأة طرقت بابي. كل ذلك جعلك ترتمين في أحضان أول طارق على باب إخلاصك. لم يكن حبًّا في الإثم بقدر ما كان انتقامًا مني!

وتجرَّعتُ مرارة الخطيئة التي ارتكبتِها أنت!

وكانت ثمرتها طفلة من الحرام. لقد دارت الدنيا بي يوم أخبرتِني والدمع يملأ مقلتيك.

جئتِني تائبة مستغفرة نادمة. لكني أخرجت كل غضبي، وحولته إلى ركلات وصفعات على وجهك وبطنك لعل تلك الثمرة تسقط؛ لكنْ أبَى اللهُ إلَّا أن تعيش وتولد. وطلبت مني ما هو فوق طاقتي بعد أن مات شريك الإثم والمعصية في حادث سيارة. قبل أن تضعي حملك بشهر واحد. ووافقت، نعم وافقت؛ لأني أعشق التراب الذي تخطرين عليه. أعشق جمال قلبك الآثم، كنت سادِيًّا أستعذب الألم!

طلبتِ مني أن أكتب طفلة الخطيئة باسمي، رغم أن هذا مخالفٌ لمبادئي وديني!

لكني سترت عليك؛ لأنك امرأتي. وحليلتي، وحبيبتي. وما كنت أبدًا لأجلدك، أو أحاسبك على نزوة طارئة عدتِ بعدها نادمة. لكنَّ نفسي أبت عليّ!

كنت أرى تلك الطفلة البريئة كطائر جميل ينمو بلا ذنب. رققت لحالها في أول الأمر؛ لكني عدت إلى صوابي عندما فقدتك، ووجدت أن مالي الذي جمعته بعرقي ودموعي وسهري يذهب إلى طفلة ليست من صُلبي!

تحولت إلى وحش شرس يريد استرجاع حقه. بعد أن سلبته منه الأيام.

وكنت وفيًّا بوعدي لك ألَّا يعلم أحد بتلك الطامّة حتى أموت، ويلحقني العار حتى قبري.

إن أخاكِ رفيقًا قد أخذ مكاني في قلب ابنتك. هي تعتبره أباها الحقيقي؛ لكنه لا يعلم الحقيقة، ويُصِرّ على أن ابنتك من صلبي. وأنا أعدك ألَّا أخبره بالحقيقة الغائبة عنه، وأحتفظ بها منذ إحدى وعشرين سنة!

أعدك ألَّا أخبره بالحقيقة إلَّا إذا استفزَّني. وهو يصرُّ على ذلك، ويداوم على الضغط على جرحي الملتهب الذي يأكل نفسي وروحي، ذلك الجرح الذي ملأه قيح الصبر، وهيَّجه الهوان والقرف الذي أنا غارق فيه!

قولي له عبر الحُجُبِ إنَّ لِيَ احتمالًا. حتى إذا لم يعد في قوس الصبر منزع؛ فإني سأفعلها كما فعلها نيرون بروما!

وأنت وشأنك، فلتزوريه في أحلامه، أو افعلي أي شيء!

أنا أحبك، ولا أريد أن أهتِكَ سترك. ولكن عندما يطفح الكيل؛ لن أبقي على محبتك!

لقد اتهمني بمحاولة قتل ابنتك!

نعم أنا في قرارة نفسي أريد زوالها. وحاولت قتلها، ففكرة أنها ورثت مالك، الذي هو مالي في الأصل، تحرق روحي، وتُغلِي كرات الدم في عروقي.

وإن فورة النفس التي غلبتني ساعتها كانت كفيلة بأن تُنِيم ابنتك معك في قبرك الآن؛ لكنْ يبدو أن لها عمرًا!

الخمرة قد تلاعبت برأسي، فحاولت فعلًا!

كان مؤلمًا بالنسبة لي أن تكتبي نسبة من شركتي؛ التي اقتسمتها معك. وتعطيها لهذه العاهرة!

شركتي التي بنيتها بعرقي ودموعي، وكدِّي تعطينها هكذا دون مقابل لابنتك التي ليست من صلبي؟!

لا. لا. لا هذا لن يكون أبدًا، يكفيها ما وضعتِهِ في البنوك باسمها. أما شركتي، فلا. وألف لا!

يخنقه جو المقابر، فيأخذ سيارته ويصعد إلى جبل المقطم، حيث أنوار القاهرة الفاطمية تحت قدميه. وهواء منعش يجدد طاقته. فينشرح صدره، ويكمل ليلته هناك.

ينزل من الجبل، بعد ساعة تقريبًا ويقرر عدم العودة إلى البيت، وإكمال السهرة في أحد فنادق القاهرة الشهيرة.

١٢- الرفيقان

بسام يستوي جالسًا في الكشك الخشبي المزدان بالورد والزهر، وتنزل من سقفه الأنوار الجميلة. يحاول أن يجمع خيوط الأحداث، ويرتِّبها حتى يصل إلى أي مستند أو خزينة يضع فيها نعمان أسراره، ويقول لنفسه متسائلًا:

- هل من الممكن أن يحتفظ نعمان بأسراره بعيدًا عن بيته؟ هل استأجر خزينة بنكية ووضع فيها تلك الأسرار؟ هل يمكن أن يحتفظ بأدلة إدانته في مكان آخر لا يعرفه أحدٌ إلّا هو؟ ربَّما!

تخرج إليه محمَّلة بصينية موضوع عليها العصير المنعش، وقطع من البسبوسة المصرية المزدانة بالكريمة البيضاء، والفستق الحلبي الأخضر الجميل.

العجيب أنها لم تتعثر، أو يهتزّ العصير في يدها!

يمسك الصينية منها شاكرًا إيَّاها على كرمها:

- لا أعرف ماذا أقول لك على هذا الكرم؟

تبتسم ، فتظهر غمازتان جميلتان غائرتان في خديها، وتحاول أن تقرِّبَ المسافات أكثر، فأكثر:

- يا بسام هل تصدقني إذا قلت لك إنك أول شاب أتحدث إليه غير هؤلاء المعلمين الذين كنت أتعامل معهم في امتحان الثانوية العامة، أو الذين كانوا يحضرون إلى هنا لتدريسي؟!

- نعم أصدقك. ولكن لماذا هذا الحصار الذي يفرضه عليك أبوك؟

- لا أدري له سببًا! ربما هو يحبني أكثر من اللازم، ويخاف عليّ. أنت تعلم ما يحدث في مصر الآن. فلم تعد هناك أخلاقٌ من الشباب، أو البنات.

خالي يقول لي: إن الفتيات في مصر هنَّ اللّائي يعاكسن الأولاد!

يقول مستغربًا: ليس لهذه الدرجة! هل أخبرك بذلك حقًّا؟!

يتناول الطبق، ويغرز الشوكة في إحدى قطع البسبوسة ويضعها في فمه، فتذوب مخلفة طعمًا يدير دماغه!

يصمت للحظات.

- مالك سكتّ؟

- لا . لا شيء. ولكني لأول مرة أتذوق فيها هذه البسبوسة المصرية بهذا الطعم. من أين تشترونها؟

تشير لنفسها بسبَّابتها في فخرٍ، وخُيَلاء:

- لا نشتري المعجّنات، والحلوى من الخارج. أنا أجعل خالي يحضر لي المكونات. وأنا التي أقوم بصناعتها هنا في الفيلَّا.

ينظر في عجب لها فاغرًا فاه:

- معقوووووووووووول!

- نعم والله. أنا أصنعها هنا في الفيلّا.

- ومن أين تعلمت هذه الأشياء؟

- تعلمتها من أمي يرحمها الله.

ثم تصمت ساهمة واجمة. وتقول في حزن عميق :علمتني كلَّ شيء قبل أن يخطفها الموت مني! كأنها كانت تعدُّني كي أبقى وحدي، وأخدمَ نفسي! كنت في الثامنة عندما دعاها داعي الموت.

- أنا آسف، لم أكن أريد أن تذكري أمك وحزنك عليها، آسف.

- لا شيء. أنا فقط أحنُّ إليها بين وقت وآخر.

لقد تركتني وأنا في أمس الحاجة إليها. بعد أن فقدت بصري. ولكن عزائي أنها في صحوي ومنامي، لا تفارقني حتى في أحلامي.

يتلفَّت حوله متوجِّسًا.

- أخشى أن يحضر أبوك فجأة، وهذا أمر غير محمود العواقب!

- لا تخشَ شيئًا، فما دام قد تأخر إلى هذه الساعة، فلن يعود إلى الفيلّا إلَّا صباحًا مع شروق الشمس.

- ومن الذي أكد لك هذا الأمر؟!

- أنا أعرفه، فهو أبي. عوَّدني على هذا!

- ولكن، لماذا يعاملك بهذه القسوة؟!

- هو يعتقد أني السبب في موت أمي. فقد كان يعشقها عشقًا جنونيًّا.

- كيف؟ لا أفهم. هل ماتت أثناء ولادتك؟!

- ألا تذكر. لقد قلت لك إنها ماتت وعمري ثماني سنوات!

- أجل، أجل، تذكرت؛ ولكن كيف ماتت؟ لو كان في الأمر مشقة عليك، فلا داعي لأن تحكي لي سبب موتها.

- لا. لا هذا الأمر يجعلني أفخر بها أكثر من أي وقت مضى.

- كيف ذلك؟

- لقد ماتت بسبب السرطان. كان الورم ينتشر في جسمها وهي لا تدري، وكانت ساعتها تدور بي على المستشفيات، ومراكز العيون؛ حتى توقف زحف وحش العمى عن عينَيّ.

- أنا آسف. لعلي ذكَّرتك بها دون قصد مني!

- لا عليك، فما نسيتها أبدًا حتى أذكرها.

- ولكن ما موقف أبيك من مرضها؟

- حزن عليها حزنًا شديدًا، وأقدم على الانتحار أكثر من مرة ؛ لكنه كان يفشل.

- ألهذا الحَدّ كان يحبها؟

- وأكثر من ذلك. خالي أخبرني أن الناس كانوا يراقبونه في المقابر، وكان يتحدث إليها وكأنها حية. والعجيب أنه يعتبرني سببًا في موتها!

- وكيف ذلك؟

- كانت تدور بي على المستشفيات كما أخبرتك. ولم تكن تعلم بانتشار الورم. حتى سقطت ذات مرة، وهي تنزل بي من فوق الدرج بالمستشفي. وأصيبت بالإغماء. وتم تشخيص حالتها بوجود ورم في مرحلة متقدمة.

- وماذا عنك؟

- رعاني خالي من بعدها. وكان يساعدني على صعود سلم التعليم حتى حصلت على ليسانس اللغة الإنجليزية من جامعة عين شمس بالانتساب!

- أووووه ! لغة إنجليزية. وشكسبير. وسومر سيت موم، وتشارلز ديكنز!

- هههههههههه وماذا في ذلك؟! أنت لا تعلم حجم المعاناة التي نجدها نحن ذوي الاحتياجات الخاصة في مصر!

- أعلم والله. كان الله في عونكم، فقد اجتمع عليكم سوء التخطيط والإهمال. والمعاناة! قلتِ لي إنكِ تحبين الشعر. هل هذا صحيح؟!

- نعم، وأنت تعلم أنه قد طُبِعَت لي أول رواية السنة الماضية.

لحظات صمت يتخللها طلب غريب منها!

- بسام، هل أطلب منك طلبًا؟

يقول مرحِّبًا:

- تفضلي. قولي ما تشائين.

- أريد. أريد أأأأن أتفحَّص وجهك!

وجده طلبًا غريبًا (تتفحص، أم تتحسس؟!).

ابتسم وقال لها:

- هذا فقط؟ ولِمَ لا؟ تفضلي.

تقرِّب يدها في رفق وتؤدة. وتضعها على شعره الأسود الكثيف الناعم. ثم تتحسس أذنيه متوسطَي الحجم؛ ثم تلمس خديه مبتسمة فرحة.

لقد رأت أباها كان متوسط الخلقة،عبوسًا، لا يضحك إلَّا لمامًا لم يكن يجلس معها وأمها إلَّا في القليل النادر، وتحفظ شكل أمها التي انطبعت صورتها في قلبها. وخالها تعرفه جيّدًا، فهو أبوها الروحي؛ لكنها لا تذكر من أشكال البشر جميعًا إلّا هؤلاء الثلاثة نفر. فلم يترك البشر لها إلَّا الألم!

الملاحظون في الثانوية العامة لم تعرف إلّا أصواتهم. تميز النحيف من السمين، وقوي البنية من ضعيفها من خلال أول كلمة ينطقون بها!

زالت كلُّ صور معلماتها في الابتدائية، كما زالت صورة الخادمة التي عاشت معها أول شهور المحنة بعد وفاة أمها. صور باهتة كأنها صور لوحات لبيكاسو!

تنتبه على صوته الحنون:

- هاه هل انتهيتِ؟

- لا، ليس بعد، هههل تضايقت مني؟

- لا أبدًا؛ لكني أراه طلبًا غريبًا بعض الشيء.

- اعذرني، فأنا لا أعرف في الدنيا سوى ثلاثة وجوه. وجه أمي ووجه أبي وخالي. فقد نسيت أشكال البشر منذ أن أصابني العمى!

- ما علينا. تفضلي.

تكمل جِلْسَةَ الفحص. وتضع أناملها الرقيقة على شفتيه المرسومتين. يالبديع صنع الله! ما هذه الوسامة؟ وتصعد إلى أنفه الأقنى المستقيم مع بقية الوجه. وترتفع إلى عينيه وحاجبيه الكثيفين. تمرر أناملها وتتحسَّس بشرته الناعمة، وذقنه الذي نبتت فيه لحيته، تستثيرها الشعرات، فتنزل يدها وتقف فجأة، كأن نارًا تلفح وجهها!

احمرّت وجنتاها خجلًا، فلم تختلِ في حياتها بشاب يكبرها ببضع سنوات قبل تلك اللحظة. ولم تتفرَّس في خِلْقَتِهِ بتلك الدقة!

تهرول إلى الداخل، وتغلق الباب خلفها دون نطق كلمة واحدة.

تستغفر الله على ما فعلت. هل ارتكبت إثمًا؟ هل أذن الله لذلك القلب أن يحبَّ ويعشق، كتلك القلوب النّدِيّة الرقراقة التي تجرب الحب العفيف لأول مرة في حياتها؟ وهل مصطلح الحب من أول نظرة -أو لمسة- قد وجد طريقه لنفسها؟

يضرب كفًا بأخرى، ويتساءل في عجب:

- ما الذي جرى لها؟ كانت هادئة وفجأة قامت كبركان هائج! آه من بنات حواء!

تفرد سجادة الصلاة، وتهرع تسترحم خالقها أن يهديها السبيل. تلتمس يده الحانية أن تربِتَ على قلبها.

تصلي وتدمع عيناها خوفًا من ارتكاب ما تندم عليه طوال حياتها. إنها أنثى ولها مشاعرها وأحاسيسها الغضَّة كبرعم صغير يحتاج لمن يرعاه حتى يستوي على سوقه. إنها كطير خرج من شرنقته، يعلوه زغب رقيق، ويبحث عن أمه المفقودة!

كحمل وديع صحا في ظلمة الليل؛ باحثًا عمّن يحوطه بحنانه وعطفه. كنحلة طنَّانة تريد أن ترتشف رحيق الزهر الندِيِّ الجميل.

باتت ليلتها تحلم بهذا الفارس الجميل النبيل الذي حطَّ رحاله بعد سفر طويل في مخدعها. تخيلته نائمًا بجوارها يبعث الطمأنينة في كيانها، احتضنت وسادتها فرحة، ينسكب في روحها الشوق مُسكرًا قلبها، ومنيرًا عينيها اللتين حُرمتا من البصر طوال ثلاث عشرة سنة كاملة!

تنزل إلى بحر من الأحلام، ثم تخرج مضمَّخة بالنور، وتعانق القمر. وتلثم خدَّ السماء، استحال الظلام إلى أضواء كريستالية. إلى شمس نهارية دافئة تهدهد نفسها، وتسكب الأمل في أعضائها. شمس لا حرَّ فيها، شمس حنونة كأم رؤوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٣- لحظات مُختَلَسة

ينتهز بسام فرصة نوم الشابة الجميلة التي استضافته لثلاثة أيام متواصلة. وراح يفتش في البيت وغرفه. وخباياه!

طاردته أفكارٌ من مثل: هل هذا هو ردُّ الجميل لهذه الفتاة النبيلة التي ائتمنتك على نفسها وحياتها، وأطلقت العنان لمشاعرها معك، وبثَّتْك تاريخ حياتها؟

طرد هذا الخاطر الطيب الذي كان يأمره بالخير، ويذكره بنفسه الصافية. والتفت فقط إلى رسالته التي جاء من أجلها لهذا البيت. "كشف هذا السادي الذي نشر الفساد واشترى الذمم، وخان العهود.".

نعم إنه هدف ميكيافيللي بغيض:" الغاية تبرر الوسيلة"؛ لكنه من أجل الفقراء يفعل أي شيء!

وجد "بورتريه" غريبًا للموناليزا موضوعًا على أحد الحوائط، فذهب للفرجة. وحاول أن يلمسه بأنامله، فتحركت اللوحة لتكشف عن خزينة ذات أرقام!

حاول فتحها؛ لكنه فشل. وفكر في أن يراقب نعمان؛ ليعرف تلك الأرقام التي يتم من خلالها فتح الخزينة.

ثم ذهب كعادته لينام في الهواء الطلق، وفي الظلام تحت إحدى الأشجار المنتشرة بالفيلّا. كان من حسن حظه أن صاحب الفيلّا يكره الكلاب، ولا يحبها. كما أنه طرد حرَّاس الأمن، لأنه وجد أحدهم ذات يوم يتلصص على من بداخلها!

يخرج الصبح وليدًا مكتملًا من رحم عتمة الليل. وتنتشر العصافير على الأشجار؛ لتلقِيَ تحيتها على الدنيا، موقظة تلك الشابة اليافعة الجميلة، فتقوم من نومها لتقبِّلَ كلَّ شيء حولها، الزهور التي وضعتها منذ البارحة, وصورة أمها الموضوعة في إطار ذهبي. والمصحف الموضوع على إحدى الوسائد. والعصافير التي فتحت أقفاصها، وأمسكت بكل واحد منها لتلثمه وتحتضنه في حبور وسعادة. ثم وضعته في القفص مرة أخرى! تريد إطلاقها لتنعم بالحرية؛ لكنها تتذكرأنها ستظل وحيدة بدونها... فتبقي عليها في الأسر!

تتطلع إلى هذا الكائن البشري الذي اقتحم حياتها. تخرج إلى الحديقة في السادسة بعد أن صلَّتْ فرضها في مخدعها، تبحث عنه بين الأشجار المنتشرة علَّه ينام تحت واحدة منها. تمشي، وتتحسس بقدمها ما يقابلها، فتتعثر قدماها فجأة بجسمٍ لَدِنٍ .

يقوم من نومه مفزوعًا، ويفرك عينيه. ليجدها واقفة بوجهها الصبوح اللبنيِّ الأبيض. تضع إيشاربًا مُوَرّدًا بورودٍ زاهية. وتفوح منها رائحة الياسمين، فتدور رأسه:

- صباح الجمال والورد، والياسمين، وكل الزهور التي زرعتها في حديقتك الجميلة هذه!

تبتسم خجلى من هذا الكلام الناعم الجميل. أجمل صباح من أروع مخلوق التقته منذ سنين!

- صباح الخير، كيف حالك اليوم؟ هل نمت نومًا هنيئًا؟!

- الحمد لله رب العالمين. كنت مرهقًا، فنمت نومًا عميقًا؛ ولكن هل أستميحك في أن أشرب من يدك فنجانًا من القهوة؟

- لكنك لم تأكل شيئًا! أتشرب القهوة قبل الفطور؟!

- لقد اعتدت على هذا منذ أيام الجامعة، وللأسف أدمنت هذا الأمر، وإذا لم أشرب هذا الفنجان أصبح عصبيَّ المزاج طوال النهار للأسف! فللقهوة سطوتها العجيبة التي جعلتني أسيرًا لها، ولم تطلق سراحي منذ سنين!

- تمام. إذًا، أحضر لك فنجانًا تبدأ به يومك.

- أكون شاكرًا ممتنًّا.

تستدير مستأذنة، ثم تدخل لإعدادها، على نار هادئة، وتخرج البُنّ المخصوص الذي تشرب منه أثناء جلوسها للكتابة. وتحضر فنجانين جميلين من "دولاب النيش" ثم صينية مذهبة، محفور عليها رسومات بارزة، وورود وعشاق وعاشقات يجلسون بين الخضرة!

تأخذ وردة حمراء زاهية تُقطِر ماءً وحبًّا، وهُيامًا من "فاز" أزرق موضوع على طاولة قريبة. وتقبّلها وتحتضنها، وتضعها نائمة هادئة بجانب الفنجانين. ما تلك السعادة التي ترفل فيها؟ ما هذا الندى الذي يُفرَزُ من جلدها، كأنها زهرة صيفية متعطشة للحب؟ ما هذا النُّضَار الذي يقطر من ثغرها؟ ما هذا العسل الذي يخرج من عينيها. نسيت عماها. ونسيت الظلام والألم واليأس والعناء والضيق.

نهر من لجين تُغرق نفسها فيه، محيط من الزبرجد ينسكب على شعرها، فتتحول خصلاته إلى توقٍ وألقٍ ونور! يفكر فيها، وتكاد عيناه تأكلانها، " لم يكن إعجاب شهوة، بل كان إعجابًا من نوعٍ مختلف، يعلم أن الله يراقبه، وهو مطّلع عليه، فلديه شقيقات يخاف عليهن. كما أنه تعامل مع زميلاته في الصحيفة، وكان يضع في حسبانه القولة الخالدة الرادعة الزاجرة: وقول الشافعي: (عِفُّوا تعِفّ نساؤكم في المحْرِمِ)، كان يصلي ويعرف حدود الله. نعم له شهوة كباقي ذكور بني آدم؛ لكنه احترمها، وأدّبها وقرر أنه لا طريق لشهوته إلّا في الحلال. كان يستعين على تسكين تلك الشهوة بالصوم والصلاة. ابتعد عن جميع المثيرات التي من الممكن أن يُطلَقَ سعارُها. وتحرّر من أسرها!

عشرات الزميلات معه في الجريدة؛ لكنه أبدًا ما نظر لأيَّةٍ منهنَّ نظرة مُشينة تحطُّ من قدرها أمامه. كان يضع بينه وبين كلٍّ منهن حاجزًا سميكًا من جمل تبدأ بـ:

" تذكر. لك أم، وأخَوَات بنات"، وتنتهي بـ"اتقِّ الله".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٤- لقاءٌ صباحِيٌّ بلون الورد

بعد إعدادها القهوة تخرج إليه يضوع عبيرها، هائمة، حالمة، رقيقة، رقراقة يجرح النسيم خدها، فتخجل وتلوذ بالورد، تبثُّ إليه شكواها من الهوى الذي أضناها. وأقضَّ مضجعها، وحرمها النوم.

تضع القهوة هادئة مطمئنة إلى ذلك المخلوق الوديع، الشفاف.

- تفضَّلْ قهوتك.

يمسك الوردة ويتنسَّم عبيرها، فيهز رأسه إعجابًا وشكرًا لذلك الملاك الحالم الذي يشاركه جلسته الصباحية الدافئة، ثم يرفع الفنجان إلى فيه، ويرشف رشفات متتابعة، يحس نفسه موزونًا، فائقًا، مندهشًا!

- من أين أتيت بهذا البُنّ؟! عجيييييييب!

- خالي يحضره لي من أشهر المحلات المتخصصة بالقاهرة.

- كم الساعة الآن؟

" وتفتح كريستالة ساعتها، وتضع أناملها لتتحسَّس العقربين، فتجدهما يشيران إلى الثامنة إلَّا رُبُعًا".

تعمَّدت ألّا توقظ والدها، وحمدت الله أنه نام حتى هذا الوقت المتأخر، فلم يزعجها هي وهذا المخلوق الرائع الذي يقف أمامها.

تستأذنه كي تنادي على أبيها للاستعداد للفطور والعمل، ووعدته بتحضير فطوره حالما ينطلق بسيارته.

كالمعتاد تعدُّ الفطور لوالدها، وبعدها بنصف ساعة تقريبًا تنطلق السيارة مزمجرة هادرة قاطعة سكون الصباح الدافئ الجميل.

تتنهَّد بعد خروجه تنهيدة طويلة؛ لأن الله سترها، فلم يلحظ أبوها هذا الغريب المتطفل!

تعدُّ الفطور وهي تغني لأم كلثوم: "يا صباح الخير ياللي معانا. ياللي معانا. الكروان غنى وصحانا. وصحانا . والطير أهي سارحة في سماها. ياللّه معاها. ياللّه معاها. يا صباح الخيييير ياللي معانا. ياللي معانا. ".

تطمئن إلى أن أباها قد انزاح من طريقها في هذه الساعة المُفرحة، فتدخل للحمَّام لتهيل عليها الماء البارد، في أوقات كثيرة تضع مكعَّبات الثلج قبل أن تُعِدَّ الحمام. فعلتها هذه المرة. أحست بتلك المكعبات وهي تذوب رويدًا، رويدًا. وضعت قدمها الأولى في "البانيو"، فجفلت من برودة المياه؛ لكنها استساغتها في نشوة. أغرقت نفسها بالكلية داخل هذا الصندوق الرخاميّ الرائع. وسكبت من سائل ذي رائحة أخَّاذة. وركنت للدَّعَة والهدوووووووووء!

تجفف شعرها، وتخرج أرق أنواع العطور، وتضع منه بمهارة على عنقها، وخلف أذنيها، وفوق جبهتها، وتحت إبطيْها، ثم تخرج فستانًا أحمرَ جميلًا. كانت قد اشترته يوم أن احتفلت بعيد ميلادها الحادي والعشرين. به ورد أخضرُ وأصفرُ، وتنتثر على جوانبه زهرات الفلّ الأبيض النادي. وتجمّل أطرافه من الأسفل زخارف نباتية خضراء مميزة تلفت النظر، وتأخذ العقول!

لم يكن شفافًا؛ بل فضفاضًا، وقطنيًّا، ناعم الملمس. لم يكن مكشوفًا مبتذلًا. ولم تكن تفضِّل لبس الحريريات في هذا الحرِّ الدافئ؛ بل تفضل القطنيات عمومًا؛ لأن بشرتها حسَّاسة.

تنادي عليه من شباك المطبخ، فلم يكن هناك سواهما في الفيلَّا والهدوء يلف المكان:

- بسام، يا بسام، الفطور جاهز تعالَ هيَّا.

يااااااااااه ما هذا الكروان الذي ينادي؟!

ينعشه صوتها الذي يشبه صوت مذيعات الراديو، وقارئات الأخبار الخفيفة. والتوك شو!

يسرع إلى الداخل ملبيًّا.

- أنا طوع بنانك سيدتي.

تضحك قائلة:

- على فكرة خالي يلقبني بـ" الدوقة"، وحاليًا أكتب روايتي الثانية وهي من وحي الريف الإنجليزي!

ينعقد لسانه عندما يراها في ثوبها الأحمر، ينقصها تاجٌ ذهبيٌّ مرصَّع بالألماس. وتصبح هي الأميرة "سنووايت"، أو سندريلَّا بعد أن ألبستها الساحرة الطيبة ملابس جميلة؛ لتقابل بها الأمير في الليلة الموعودة، إنها تذكِّره بمحمود حسن إسماعيل في ديوانه: "أغاني الكوخ"، وكان قد قرأ له قصيدة عن الفستان الأحمر، وبعدها حفظها عن ظهر قلب، وسرح فيها عندما رآها:

إن تكن نارًا؛ فما أشهى خلودي في سعيركْ!

أو تكن وردًا؛ فيا لهفة روحي لعبيركْ!

طرفك الهفهاف يبدي لوعة خلف سُتُوركْ

ولهف روحي طارت ترتوي من فيْضِ نورِكْ

تتمنَّى لو تهادت موجة فوق غديركْ

أو خيالًا من هواها سابحًا طيّ ضميركْ!

ليت يا "فستان" لمّا لُحْتَ تزهو في حريركْ!

كنتُ ذرًا نابضَ الإحساس يجري في أثيركْ!

يلثُم الحسن، ويهوى فانيًا بين عطوركْ!

وأخذت تلك الكلمة يتردَّد صداها في أعماق نفسه بعدما تنسَّم عبيرها الفوَّاح، ذلك الذي أسكره بلا خمر، فأصبح كالمخمور ولا مُدام!

تخرجه عن صمته بدعوته للجلوس على السفرة. فيستجيب؛ ولكنه قبل أن يجلس، يدور من خلفها، ويسحب كرسيًّا؛ كي تجلس هي أوّلًا مداعبًا إيَّاها:

- تفضلي سيدتي الدوقة.

- ههههههههههههه، شكرًا سير بسَّام.

- اسمحي لي أن أبدي إعجابي بهذا الفستان الرائع.

- هل أعجبك؟ اشتريته يوم أن احتفلت بعيد ميلادي.

- ولكن ما هذا العبير الأخَّاذ يا سيدتي الدوقة؟!

تخجل وتبتسم، وينعقد لسانها، ولا تدري جوابًا لهذا الإطراء.

يتناجيان كعصفورين أليفين أثناء تناول الطعام.

تحدثت معه عن مفهومها للدنيا، وفلسفة الألم، والوجع والفقد، حدثته عن أمها وكيف كانت زهرة يانعة في عزِّ شبابها، تضجُّ حيوية ونشاطًا، وأخبرته عن جمالها، لا تزال تذكر ملامح أمها، وتحفظ تفاصيل وجهها البريء الحنون.

تسرح هنيهة، وتذكر أنها قرأت ليوسف السباعي الأديب الشهيد رواية "السقا مات"، وقالت: إن أعظم ما أعجبها في تلك الرواية حديث السباعي في أحد فصولها عن الموت وفلسفته، كان ما قرأته فلسفيًّا، ورمزيًّا، وسهلًا ممتنعًا بيَّن فيه يوسف أن مآل الناس جميعًا إلى الموت، وأن الكلَّ يستوي في القبر. الباشا والغفير. رئيس الدولة والفقير. وأن الناس الذين يتصارعون على أمور دنيوية لا يعلمون حقارة تلك الدنيا، وكونها تغرُّ غيرها. وتجعله يرتكب من الحماقات ما يوصله إلى جهنم بيسر وسهولة!

كانت تتكلم في هدوء كأنها لا تريد للزمن أن يمضي. ليت الساعة تتوقف. ليت الثواني تمسك بتلابيب الدقائق، والساعات، وتجبرها على الثبات عند هذا الحدث الدراميِّ المشهود!

" ليتك تقترب مني أكثر، فأكثر. ليت روحي، وروحك تنتقلان إلى عالم سرمدي أبدي، تتلاشى فيه السنون والأيام! ليتنا في الجنة الآن، حيث يتعطل الزمن. حيث لا معنى له. إنما الأبدي الأزلي، والسرمدي هو الله خالق الوجود. سبحانه سينزع من الوقت خاصية الكرّ والتتابع، وستصبح الجنة حِكْرًا على الخلود دون فناء، ولا موت."

تنتبه على صوته:

- هاي. أين ذهبت؟! لماذا لا تأكلين؟! أين رحتِ؟!

- لا. لا شيء فقط تذكرت أمي، والموت. والجنة والخلود. فكرت في اللحظات الجميلة التي تبخل علينا وتقتِّر، ولا تعود أو تمتد وتستمر، وتضنُّ ضنًّا مجحفًا يجعلنا نرتمي في ظلمات

اليأس والقنوط!

- دعك من التفكير السوداوِيِّ، انظري للحياة بأمل واستشراف للمستقبل.

- المستقبل. ترى ما الذي يخبئه لنا القدر؟ ربنا يلطف.

- أنت معي الآن، فلا تفكري في المستقبل، فهو بيدِ اللهِ سبحانه وتعالى، وانظري للحاضر، وعسى الله أن يبدِّلَ الأحوال. ولعلك قد قرأت قول الشافعي:

ما بين طرفة عينٍ وانتباهتها *** يبدِّلُ الله من حالٍ إلى حالِ

- صدقت والله. لقد قاسيت في حياتي كثيرًا، واختبرني الله بموت أمي . وقسوة أبي وفقد بصري. ولكن الحمد لله، لقد أعطاني الله وحباني بطاقة إيجابية أستطيع بها مواصلة حياتي.

- أنا سعيد جِدًّا بالتعرف عليك يا سلمى. وصدقيني لم ألتقِ من قبل بفتاة لها عزيمتك، وصبرك ومثابرتك.

- لست أدري من أين يأتيني هذا الجَلَد، والصبر على تحمُّل ما يحدث لي.

إنه الله وحده الذي يقف بجانبي ويقويني ويساعدني. وقد حباني بخالي الذي لولاه بعد الله لكنت ضعت في هذه الحياة. على فكرة هو لم يتزوج بسببي، فلم يرد لأية امرأة أن تشاركني فيه! أحيانًا كان يقع بلسانه ويقول لي: يا سلمى إن لم أجد امرأة في مثل أخلاقك فلن أتزوج! أنت مسؤولة مني، حتى ألقى الله.

- ولكن يا سلمى،، ألاحظ أنه لم يأتِ إلى هنا منذ أن حضرت!

- لقد اختلف مع أبي، ويطمئن عليَّ بالجوال. هو يريدني أن أذهب معه؛ ليرعاني في بيته. لكني لا أريد هذا. من الذي سيهتم بأبي ومطالبه؟!

- ولكنَّ أباك لا يهتم بك. واعذريني بدلًا من أن يُحضِرَ مَنْ يخدمُكِ. أنت التي تقومين بخدمة نفسك؛ بل وتخدمينه أيضًا!

- ومن الذي يحضر لك ما تحتاجينه من السوق؟

- أبي يحضر معه كل شيء. أسجّل له ما نريده، وهو يتكفل بهذا!

- وما قصة الخدم؟ لاحظت عدم وجود أمن بالفيلّا! رغم وجودكما في حيٍّ هادئٍ كهذا، وهو مطمع لكل لاجئ ومنحرف!

- والله هو له وجهة نظر في هذا الأمر؛ يحافظ على خصوصية المكان!

ولا يريد للأعين المتلصِّصَة أن تجرح تلك الخصوصية. كان قد عيَّن بعض رجال الأمن منذ سنتين، ولاحظ أن بعضهم يتلصصون، ويتجسسون عليه وعليّ. فطردهم.

كما أنه لديه حساسية معينة من الحيوانات بشكل عام. وقد لاحظت أنت أنه لا توجد قطط، وليس هناك كلاب للحراسة، أو للتربية من أي نوع، فهو لا يحبها!

- ولكن. كيف ستتصرفون لو حدث – لا قدَّر الله- أيُّ اعتداء من أيِّ نوع؟

- لقد فَطَنَ أبي لهذا الأمر، ووضع أجهزة إنذار عالية الجودة في أنحاء الفيلّا وعلى الأسوار؛ كما وضع خالي كاميرات مراقبة؛ لكنه لم يتابعها منذ اختلافه مع أبي! ويبدو أنها تعطلت؛ لأن أبي لم يتابعها. ربما لا يجد وقتًا لمتابعتها وفحص التسجيلات الخاصة بها؛ لكنه بدلًا من الكاميرات، وضع في الأسبوع الماضي برنامجًا إلكترونيًا متصلًا بدائرة الشرطة وهي على مقربة من هنا، فحالما يحدث شيء مريب تنطلق إشارة إلى الدائرة الشرطية، فتجد سيارتَيْ شرطة تحيطان بالمكان!

- ولكني لم أجد شيئًا ممَّا تقولينه, فلا أجهزة الإنذار تعمل، ولا إشارة إلى دائرة الشرطة أُرْسلت!

- يبدو أن أبي عطّلها لغرض ما!

- وما المصلحة من وراء هذا الأمر؟!

تمطّ شفتها السفلى عاجزة عن الإجابة كما يفعل معظم المصريين عندما يحارون ويعجزون!

"ولم تدر المسكينة أن أباها قد خرَّب الكاميرات بداخل الفيلّا، وعطل برنامج الاتصال بالشرطة عن عمد لغرض ما في نفسه لم يفصح لها عنه!".

فبعد محاولته الاعتداء عليها. وتسجيل الكاميرات لهذا الاعتداء؛ قرر أن يخرِّبَ كل تلك العوامل المساعدة التي توفر الأمان لابنة زوجته!

كانت ظمأى لجلسة كهذه تتحدث فيها بغير انقطاع. كم تاقت للأخذ والردِّ! كم أسعدها أن يتعرف أحوالَها أحدٌ كبسام! تشكره في أعماقها؛ لأنه حرَّك المياه الراكدة. وصنع لها عالمًا جديدًا. عالمًا نورانيًا عجيبًا مفعمًا بالأمل والغبطة. إن هذا الشاب قد أحال حياة الجدب التي كانت تعيشها، إلى أحاسيس ندِيّة مبللة بالعشق والفرح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٥- الصفعة!

طرأت فكرة جهنمية على رأس الشاب الصحفي، فقرر أن يراقب الأب في جميع حركاته داخل المنزل. علّه يجد خيطًا ما يوصله لما يبحث عنه.

يدخل نعمان إلى الفيلًا مغلِقًا باب الجراج على السيارة كالمعتاد.

يسحب بسام نفسه إلى إحدى النوافذ المفتوحة، ويتطلع مراقبًا ما يحدث بالداخل. حيث كانت سلمى مشغولة بإعداد الطعام لهذا النَّهِم كالعادة. قبل أن يجلس على السفرة بالصالة الرئيسية. يتجه إلى لوحة الموناليزا، مصطحبًا معه ظرفًا متوسط الحجم.

(لحظتها يخرج بسام جوَّاله من جيب بنطاله الخلفيّ، وكان قد انتزع منه خط الاتصال، وأبقى على "كارت الذاكرة" فقط، حتى لا يتصل به أحد، وتحدث الكارثة!

إنه يستخدم من الهاتف الكاميرا فقط. يبدأ التسجيل، ويصور كل ما يحدث الآن. وضع أصبعيه "السبابة والإبهام" على الشاشة، وسحب فاتسعت الصورة وكبُر حجمُها.).

يحرِّك نعمان الصورة، فتظهر الخزينة خلفها. يضغط على أرقام معينة. ثم يمسك بقبضته الباب؛ فيفتحه ويضع الظرف في الخزينة، ويغلقها مرة أخرى، ثم يعيد اللوحة إلى مكانها ويساويها على الحائط!

يسجل بسام كل ما حدث في عقله أوّلًا، ثم بالتبعية يتم تسجيل ما فعله نعمان صوتًا وصورة بكل تفاصيله وهفواته ودقائقه.

يعود نعمان إلى السفرة. ويجلس على أحد كراسيها. وقد وضع زجاجة خمر أحضرها توًّا من الخارج. ولم يلقِ بالًا لابنة زوجته وكونها قد تتعثر فيها!

تحضر سلمى عربة الطعام. تعرف طريقها للمائدة. وتقترب شيئًا، فشيئًا، وتبدأ في وضع الطعام طبقًا، طبقًا. وفجأة تخبط يدها الزجاجة كفعل عفوي غير مقصود، فتترنح، وتقع على الأرض فتنكسر، وتنثر الماء الحرام على أرضية الصالة.

تحدث دوِيًّا مفزعًا ينخلع له قلبها. فيقوم نعمان مفزوعًا. وينظر في حسرة إلى حطام الزجاجة المنثور على الرخام الأبيض اللبني. " لم يكن لديه في البيت غيرها"، ولا يتمالك نفسه، فيصفعها صفعة يخرج معها كل الغضب والنار التي تحرق فؤاده على تلك المسكينة التي ليس لها ذنب. فتقع على الأرض مغشيًّا عليها. كانت على وشك أن ترتمي على الزجاج المتناثر على الرخام الأملس؛ لكن الله الرحيم يلطف بها، وينجيها من كارثة محققة، كان بينها وبين هذا الحطام نصف متر!

رأى بسام هذا المشهد الرهيب، فانخلع قلبه من مكانه على حبيبته التي لم يبُحْ بعد بحبه لها، دمعت عيناه عجزًا، وقرفًا، وذلًّا. ساعتها أقسم أن يذيق هذا الفاجر السكير ألوان الهوان!

أحضر نعمان دلو الثلج، وأفرغه دفعة واحدة على رأس المسكينة، فأفاقت مذهولة لا تدري من أمر نفسها شيئًا، قامت وبها قهر الدنيا. وقرف الدنيا. وذل الدنيا. لملمت أشلاء نفسها، ورحلت إلى غرفتها تَئِنُّ على كرامتها المهدرة.

لكنَّ بسامًا سأل نفسه عشرات الأسئلة:

- لماذا يعاملها هذا الحيوان بهذه الغلظة؟ أليست ابنته؟ لماذا هذا الجفاء؟ وما سبب تلك القسوة؟ هناك سرٌّ ما يحيط بهذه الأسرة ولا بُدَّ لي من أن أكشفه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٦- مفاجأة

انتظر بسام حتى خرج هذا الحيوان من المنزل مرة أخرى. وانسحب إلى غرفة سلمى، فوجدها ملقاة على سريرها قد نامت من كثرة البكاء والذل والإعياء!

صمَّم أن يكشف السر المكنون وراء تعذيب هذا الحيوان "نعمان" لابنته. فعاد إلى الصالة الرئيسية، على أطراف أصابعه، واطمأنَّ إلى سكون البيت، فلا أحدَ يراقبه، ولا عينَ تراه، فالكاميرات عطلها صاحب البيت، كما أنه طرد الحراس!

اتجه على حذر إلى لوحة الموناليزا. وحرَّكها في هدوء. وفتح الجوال على الفيلم الذي صوَّره لنعمان وكتم الصوت، وأوقفه على منظر الخزينة وأرقامها. وضع أصبعه الإبهام، وضغط على الأرقام التي رآها بهذا المشهد المصوَّر. وأمسك بالباب وحرّكه، فتحرك معه وانفتح.

لمعت عيناه, وأحسّ بالفرح، فقد أصبح قاب قوسين أو أدنى من كشف تلك الإمبراطورية المليارية العتيدة! وسيكشف دولة نعمان الزائفة التي بناها من قش وورق!

أخرج منها الظرف والأوراق، ولاحظ وجود " أجندة"، ففتحها. وفغر فاه لما عرف ما بداخلها، إنها مذكرات نعمان الشخصية!

وضع كل شيء على طاولة أمامه وجلس ليفحص الأوراق بعناية.

صور كل ورقة وقعت تحت يديه.

تتبع كل تاريخ. وكذا جميع المبالغ التي حصل عليها نعمان من تجارة السلاح. وتجارة اللحوم الفاسدة، وتجارة الأراضي. والآثار، وجد أسماء بعض الكبار الضالعين في الفساد، والغارقين في مستنقع الرشوة والمحسوبية!

كما وجد أسماء لكثير من كبار المسؤولين الذين كُتبت أمامهم المبالغ التي حصلوا عليها، والعمولات التي اكتسبوها من تسقيع الأراضي، وابتزاز كبار المستثمرين الفاسدين. حتى لا يثيروا ضدهم طلبات إحاطة، أو استجوابات داخل قاعات البرلمان!

كما كان هناك كشوف رشوة لموظفين داخل سفارات بعض الدول الأجنبية بأمريكا اللاتينية التي كان نعمان يستورد منها اللحوم. وخطابات تثبت عدم صلاحية تلك اللحوم للاستخدام الآدمي، ورشاوى تم تقديمها لبعض الناس في تلك الدول للتوقيع على شهادات مزورة تثبت ذبح تلك الحيوانات حسب الشريعة الإسلامية!

كل هذا كان في كفة، وما قرأه في مذكرات نعمان كان في كفة أخرى.

حيث مكث بسام ساعتين ونصف الساعة يقرأ مذكرات نعمان التي يفضح فيها جميع من تعامل معهم. بدءًا من زوجته التي ألصقت به ابنة ليست من صلبه، وأجبرته على أن يكتبها في

السجلات الرسمية باسمه وينسبها إلى نفسه، ويكون أباها رغمًا عن أنفه! حيث جعلت زوجته هذا الأمر شرطًا للرجوع إليه، وإكمال حياتها معه!

ثم اعترافه بمحاولة قتل سلمى؛ لأنها ورثت عن أمها نصيبها في الشركة التي بناها بكده وعرقه! " نعمان يكتب مذكراته لينفِّسَ عن صدره ما به من هموم. كما جعل بعض السطور كانتقام مؤجَّل في حالة تم كشفه لأي سبب!".

ثم ورقة الضد التي أخذها على مدير قسم الأمن بالشركة. بعد أن أحضر له شريطًا يبين محاولة القتل بالصوت والصورة. وكان رفيق خال سلمى قد استولى عليه، وخبَّأه في منزله، ولكن نعمان كان أذكى منه، فأوعز إلى مديرالأمن بسرقة الشريط. وبذلك أمن نعمان شرَّ رفيق!

- الآن فقط وقعت يا نعمان! " قالها بسام وهو يفرك يديه".

قرَّر أن يذهب على الفور إلى إحدى صحف المعارضة التي كان يراسلها.

وترك حبيبته لبعض الوقت حتى يرتِّبَ أموره؛ لكنه فكر في رفيق؛ فقرر أن يذهب إليه أوّلًا حيث ذكر نعمان عنوان بيته في المذكرات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٧- لقاء الحقيقة

عند باب الشقة وقف بسام، وضغط على جرس الباب. مرة. ومرة. ومرة!

فُتِحَ الباب. ووجد رجلًا في الأربعين يفرك عينيه ليسأله:

- من أنت؟ وماذا تريد في هذه الساعة من الليل؟!

قال بسام وأنفاسه تتتابع:

- اسمي بسام. صحفي وجئت إليك في أمر مهم جِدًّا يخصُّ سلمى!

يفسح له الطريق داعيًا إيَّاه للدخول. والقلق يقتله على سلمى ابنة أخته:

- ما لها سلمى؟! ادخل. تفضل. انتظر هنا حتى آتي إليك. (يشير إليه بأن يجلس على إحدى الأرائك).

يدخل المطبخ؛ ليصنع فنجانَيْ قهوة؛ حتى ينتبه لما سيقوله هذا الزائر الغريب.

يغيب خمس دقائق، ثم يعود بصينية عليها فنجانا قهوة، وكوب ماء. ويسأل قبل أن يضع الصينية على المنضدة:

- ما لها سلمى؟! هل حدث لها مكروه؟

- سلمى في خطر يا أستاذ رفيق. أوّلًا أنا صحفي كما قلت لك. وكنت أتتبَّع سقطات نعمان زوج أختك المستثمر؛ حتى أقدم مستندات تثبت فساده. وأنه يقدم للناس لحومًا فاسدة لا تصلح للاستهلاك الآدمي. واكتشفت ما هو أكبر من ذلك.

- انطق ما الذي اكتشفته. وما علاقة سلمى بالأمر؟!

- اصبر يا أستاذ رفيق، فقد اكتشفت أن سلمى ليست ابنة نعمان!

يضع رفيق وجهه إلى الأرض، ويهزُّ رأسه موافقًا على كلام بسام:

- هل عرفت هذا الأمر؟ لقد أقسمت ألّا أقول شيئًا لسلمى؛ لأني وعدت أمها بعدم إفشاء سرها الذي حفظته في صدري لمدة إحدى وعشرين سنة!

يستمع بسام إليه في اهتمام بالغ. لم يشأ أن يقاطع رفيقًا حتى يلقي ما جعبته من أسرار صادمة!

يشعل رفيق سيجارة بيد مرتعشة، ويكمل في تُؤَدَة وتركيز زائِدَيْن:

لقد أخطأت أختي مع صديق لي! وكانت تريد الانتقام من زوجها نعمان؛ لأنها عرفت أنه يخونها خلال الشهرين اللَّذين غاب فيهما عنها. لقد أوهمها بأنه ذاهب في مهمة خاصة بالعمل؛ لكنها اكتشفت أنه كان يتلاعب بها! وفي الحقيقة أنه أخذ إجازة من الزواج، ونزل إلى إحدى المدن الساحلية؛ ليشرب من المتعة الحرام! ولما غاب عنها سألت عنه، وعرفت أنه نقض العهد

الذي قطعه على نفسه بالإخلاص لها، فقررت أن تفعل مثله، وتثبت له أن الخيانة سهلة على المرأة! اعتقدت أن العناد سيجعله يرتدع؛ لكنها في الحقيقة قد أحرقت نفسها. ووحلت في بئر المعصية. وعاقبها الله بالسرطان، فماتت متأثرة به.

قرر زوجها بعد أن علم بتلك الخيانة أن يفارقها؛ لكنه عاد إليها بعد شهر واحد ودموعه تسبقه كطفل صغير عائد إلى أمه، فقد كان يعشقها إلى حدِّ الجنون. وغفر لها ما فعلت في حقه؛ لكنها أرادت منه أن يوثِّق توبتهما معًا بأن يكتب لها نصف شركته. وأن يكتب ما في أحشائها باسمه، فقد مات الصديق الخائن في حادثة سيارة على الطريق السريع. ولم تكن لتجهضَ نفسها بعد أن تابت. فقررت ارتكاب ضرر آخر أخف بنسبة الطفل القادم لزوجها الشرعي. رغم كونه "ابن حرام"! اعتقادًا منها بأن هذا ضررٌ أخفُّ من الإجهاض. وقتل نفس بريئة ليس لها ذنب!

استمع بسام لهذه القصة العجيبة، ودار في نفسه حوار ملخصه:

كيف تقبل امرأة على نفسها أن تنسب ولدًا، أو بنتًا لغير أبيه الطبيعي. إنها كارثة والله، وقد حرمها الله سبحانه وتعالى.

- هاي. يا. يا.

- بسام يا أستاذ رفيق.

- ولكن قل لي، كيف حصلت على مذكرات نعمان من الفيلَّا؟!

- يا أستاذ رفيق، لقد قلت لك إني صحفي. ومهنتي البحث عن المعلومات. والبحث عن المتاعب أيضًا! المهم نريد أن نبحث معًا، كيف ننقذ سلمى من بين يدَيْ هذا الوحش؟

- شوف. لا بُدَّ أن نذهب في أسرع وقت إلى سلمى لنأخذها من الفيلَّا قبل أن يقتلها هذا السفاح!

انتظرني سأغير ملابسي، وآتي معك. ولكن يجب أن نحذر؛ لأنه لو رآني هناك سيعلم أني أتيت لأخذ البنت، وسيهدم علينا الدنيا!

يصطحب بسام رفيقًا للفيلَّا في التجمع الخامس. كان رفيق يعلم أن نعمان ليس له أمان. وأن رجلًا هانت المعاصي والكبائر في عينيه، فمسألة القتل تغدو هيِّنة عليه. اصطحب رفيق معه في جيب بنطاله مسدّسًا جاهزًا، فهو يحفظ نعمان ككفِّ يده!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٨- يومٌ عاصِفٌ

يصلان إلى الفيلَّا على حذر. وينزلان من سيارة رفيق. ثم يتجهان إلى الداخل. يستغرب رفيق من عدم إطلاق صافرات الإنذار. فيخبره بسام بأن نعمان قد عطلها منذ عرف أن رفيقًا قد استولى على شريط محاولة القتل!

يقترب كل منهما من غرفة سلمى؛ ويخبط خالها على زجاج الغرفة من الخارج. وينادي بصوت هامس عليها:

- سلمى. سلمى. سلمى.

- من هنا؟ من الذي ينادي عليّ؟ (تتساءل فزعة مرعوبة).

- أنا خالك رفيق يا سلمى. تعالَيْ إلى هنا بسرعة.

تقوم متجهة نحو الصوت:

- خالي رفيق. ما الذي أتي بك؟ إن أبي من الممكن أن يراك! وتحدث مصيبة.

يطمئنها:

- اهدئي يا سلمى، اهدئي يا حبيبتي. أوّلًا، بسام معي هنا.

يمسك بسام يديها. فلا تكاد تصدق.

تشعر بحرارة كفه كأن تلك الحرارة نابعة من قلبه الرحيم الملهوف الصَّادي. تقول مستفهمة:

- بسام. هل تعرفه؟ هههل يعرف أحدكما الآخر. تنزع يديها من يده، فهي لا تزال لا تفهم شيئًا ممَّا يحدث! كأنها ضربت فوق رأسها.

- يا سلمى اسمعيني أرجوكِ. هل نعمان هنا؟

- لا أدري. انتظر حتى أرى، ولكن ادخلا إلى المخزن، وأنا سوف ألحق بكما بعد أن أتأكد من عدم وجوده.

يتوسل إليها بسام:

- لا. لا. لا!

- ماذا؟ ما الذي يحدث بالضبط؟ يجب أن أفهم كل شيء! الآن وحالًا!

- اذهبي الآن، وتأكدي من عدم وجود نعمان.

- انتظرا!

تمشي في تثاقل، واندهاش وعجب. ألا يكفي ما جرى لها اليوم من مصائب؟!

تبحث عن أبيها، فلا تجده في أي مكان بالفيلّا!

تعود إليهما. وكانا قد قفزا إلى داخل غرفتها في خفة!

- ليس بالفيلَّا، يبدو أنه سيسهر حتى الصباح. كما هو معتاد ليلة الخميس!

كيف دخلتما إلى هنا؟! ما هذه الألغاز؟

ينتهز رفيق الموقف:

- اسمعي يا سلمى، لا تكثري الأسئلة ، فالدقيقة والثانية قد تفصل بيننا وبين الموت!

- أنا لا أفهم شيئًا!

- سأفهمك في السيارة يا سلمى. أرجوك لا وقت للكلام!

يقول بسام في ضيق ظاهر!

توجِّه إليه الكلام معترضة:

- بسام ، لماذا تتحدث إليّ بهذه اللهجة؟!

- ياحبيبتي. أرجوك لا وقت للكلام. الدقيقة لها ثمن غالٍ جِدًّا. ونحن نخاف على حياتك. هيَّا اجمعي ثيابك، وهيَّا لننطلق بعيدًا عن هنا.

- لن أذهب إلى أي مكان حتى أفهم!

بلهجة آمرة يقول رفيق منفعلًا:

- لا فائدة يا بسام. اذهب أنت للخزينة، وائت بجميع المستندات والأوراق. ولا تنس الأجندة.

- أية أجندة يا خالي وأيُّ أوراق؟ " تقول في حيرة وعجز وترقب وخوف"!

- سأفهمك في السيارة ليس عندي كلام آخر. هيا قومي واجمعي ملابسك.

يحضر بسام كل الأوراق والمستندات، وكذا الأجندة التي كتب فيها نعمان كل شيء دون ضغط أو إكراه. ويتحرك الجميع إلى السيارة.

تجلس سلمى بجوار خالها في المقعد الخلفي. بينما يقود بسام السيارة.

- خالي. الآن نحن بعيدون عن الفيلَّا ممكن أفهم ما الموضوع؟ وماذا ستقول لأبي عندما يسألك عني؟ ولماذا أخذتني رغمًا عنه؟ وما حكاية الأوراق والمستندات والأجندة التي أخذتماها من خزينة أبي؟!

- اهدئي يا سلمى، وسأجيبك بالتفصيل عن كل شيء. ثم يوجِّه حديثه إلى بسام:

والآن يا بسام إلى أين سنتوجه؟

يرد عليه في حزم وثبات:

- سنذهب إلى منزل إحدى زميلاتي بمحافظة المنوفية. ثم نستودعها سلمى. وبعدها في الصباح نتوجه إلى النائب العام بما معنا من مستندات أصلية، ونطالبه طبقًا لهذه المستندات بإصدار قراره بالقبض على نعمان وجميع من معه في الكشوف.

تسمع سلمى هذا الكلام، وهي غير مصدقة لما يحدث حواليها:

- لماذا ستطلبون القبض على أبي. هل فعل شيئًا؟!

يضطر رفيق إلى إلقاء قنبلة الحقيقة عارية في وجه الفتاة المسكينة.

- شوفي يا سلمى. ننذ نعمان ليس أباكِ!

تصعق من هول ما سمعت، غير مصدقة أذنيها!

- ماذا تقول يا خالي؟

أبي ليس أبي؟ كيف ذلك. وتشرد قليلًا، ثم تعود، ثم تشرد، ثم تعود كالمجنونة قائلة:

- خالي لو سمحت أنا لا أستوعب كلمة واحدة مما قلت! كيف يكون اسمي سلمى نعمان الدسوقي في جميع أوراقي الثبوتية. ثم تقول لي الآن إنه ليس أبي؟ يبدو أنكما تمزحان. هل هذا مقلب؟! لو كان كذلك لكان أسخف شيء في الدنيا!

تدمع عيناها، وتحاول دفع خالها للكلام.

يكمل رفيق حديثه منقذًا إيَّاها من توقف القلب المحتوم بعد أن سمعت تلك القنابل تنفجر في وجهها:

- يا حبيبتي دعي لي الفرصة كي أفهمك الحقيقة. ثم يبدأ من البداية.

الحكاية تبدأ عندما سافر الكومي لمدة شهرين بعيدًا عن أمك لمدة شهرين بحجة العمل، وتوسعة نشاطه التجاري...

وينطلق بسام إلى المنوفية في مسافة تستغرق ساعة ونصفًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٩-المنوفية

على حدود المنوفية. كانت سلمى تبكي بحرقة، وخالها يحاول تهدئتها، وما زاد من ألمها وقهرها أنها عرفت أن بسامًا كان في مهمة صحفية يبحث فيها عن مجد شخصي. أو هكذا حلَّلتِ الأمر. ولم تقتنع أبدًا أنه كان قد أحبها فعلًا، وأنه كان على وشك أن يعترف لها بهذا الحب؛ لكن الظروف والأحداث تتابعت، ومنعته من أن يبثَّهَا شوقه، ولواعج نفسه، وهيامه!

على باب منزل قديم البناء، يخبط بسام على الباب. كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحًا!

بينما كان نعمان يسكر بشراهة. ويقذف بالكأس تلو الأخرى في أحد البارات التابعة لأحد الفنادق الشهيرة بميدان التحرير!

يطل والد الزميلة "رشا" المنوفي من الشباك؛ ليرى الذي يخبط على بابه في الواحدة صباحًا.

- من على الباب؟

- أنا بسام يا حاج علي. زميل الآنسة رشا في الجريدة!

- يا أهلًا وسهلًا. يا ألف مرحبًا! تفضلوا. ثوانٍ وأنزل لأفتح الباب.

أثناء نزوله لفتح الباب علم أن هناك شيئًا خطيرًا وراء بسام. هو لم يكن يعرفه. ولكن ابنته أرته بعض تحقيقاته، وخبطاته الصحفية في الجريدة التي تزامله فيها.

يفتح الباب آخذًا بسامًا بالأحضان، ورفيقًا أيضًا. ويوقظ النساء بالدار ليصنعن عشاء للضيوف. يستقبلهم في القاعة الكبرى للدار. ثم يأتنس بهم لحين تحضير العشاء.

يحضر العشاء وهو عبارة عن بتّاو، وفطير مشلتت، وعسل أسود وطحينة وقشطة.

يقسم على الضيوف أن يأكلوا. لكن سلمى تستمر في بكائها، وترفض أن تأكل شيئًا، فتصحبها رشا الصحفية لغرفتها. وتجلسها على سريرها، وتحاول أن تعرف سبب بكائها؛ لكنها تطلب منها أن تحضر لها رفيقًا وبسامًا؛ كي يكملا حديثهما معها!

تطيعها. وتنادي عليهما، فيحضران. وتبدأ معركة جديدة بين الثلاثة! هي المخدوعة في أبيها وبسام. لا تريد أن تصدق أنها حقيقة. وأن ما قيل في السيارة كان مجرد أوهام لم تحدث. حاولت إقناع نفسها بأنها في كابوس مزعج رهيب؛ لكنها فوجئت بهما " بسام ورفيق" يدخلان عليها. اغرورقت عيناها بالدموع. شلال منهمر يغرق خديها. وخيطان من المخاط ينزلان من مُنْخَرَيْها، كلما مسحتهما بالمنديل الورقي يتجددان!

إن بئر الأسرار التي انفتحت فجأة، فأخرجت تاريخًا ملؤه الكذب والخيانة! قد تسلمها إلى الجنون أو الموت. أحست أن كبدها سينفجر، وأن قلبها يستوقف!

تنتظر أن يبدأ أحدهما الحديث، وثورة مكتومة تمور في قلبها، ونار مستعرة تشتعل في رئتيها. بسام يبدأ الحديث:

- سلمى. لو أنك أحسست لدقيقة واحدة أني أتيت إلى البيت للتمثيل عليك، أو خداعك، فأنت واهمة. فأنا لم أكن أعرف عنك أصلًا أي شيء. وقد حكيت لي عن أبيك أشياء لم أكن أعرفها. لقد دقَّ قلبي لك مذ رأيتك لأول مرة.

- قل ما تشاء، فلن أصدق كلمة واحدة ممّا قلت. لقد خدعتموني كلكم. أبي. أقصد نعمان الذي كتبني على اسمه في جميع أوراقه وأوراقي. وأمي التي أتت بي من الحرام، وألصقت بي رجلًا غير أبي. سامحها الله! وخالي الذي كان يعرف الحقيقة طوال إحدى وعشرين سنة، وكتمها عني! أما أنت، فلا تمثل ذرة في هذا التاريخ المزيف. نعم أنا إنسانة اسمها سلمى. تاريخها مزيف، وحياتها مزيفة، وحبها الذي انتظرته؛ كي يعوضها عن شقاء السنين أصبح مزيفًا! اخرجوا من حياتي. أريد أن أموت. لقد كرهت هذه الحياة. وكرهتكم. وكرهت نفسي! وتنفجر في البكاء والعويل مرة أخرى.

- سلمى لا تعذبيني أرجوكِ. أنا لم أحب إنسانًا في العالم مثلما أحببتك. إذا لم تصدقيني، فلماذا أتيت بك إلى هنا؟! ولماذا أنا حريص عليك أكثر من حرصي على روحي. يا سلمى إن حياتي، وحياة عائلتي مهدَّدة بسبب هذه القضية.

- نعم، أنا بالنسبة لك مجرد قضية لا أكثر ولا أقل!

يفجِّر بسام قنبلة مدوية وسط هذا الركام من الصراخ، موجّهًا حديثه إلى خالها رفيق" ومعلنًا عن قرار بمثابة الصاعقة للجميع":

- عم رفيق لو سمحت، هل تقبل أن تزوجني سلمى الآن باعتبارك ولي أمرها؟!

يصعقها تصرُّفه، وينعقد لسانها، ولا تفعل شيئًا إلّا أن تتجه نحوه. وترتمي في أحضانه لأول مرة في حياتها. فتحس برد أنفاسه رغم حرارة الجو بالغرفة.

تشعر بالثلج يغطيها! تستمر في البكاء. لا شيء سوى البكاء. تغسل نفسها في حضنه، نسيت ما قاله، وما قالته منذ برهة! لا تريد أحدًا إلّاه في هذه الساعة.

"إنها لا تكاد تصدق ما تسمع. هل فعلًا يريد الزواج بها وهي عمياء؟!

هل طاوعته نفسه بعدما عرف أنها وُلِدَتْ من الحرام، أن يقبل بها زوجه ويأتمنها على بيت، وأسرة وأولاد؟!"

يحدثها في مرح؛ ليزيل عنها جو الكآبة وكمَّ الإحباطات التي تعرضت له في هذه الليلة الجليلة:

- تفرحين، فتبكين. تحزنين، فتبكين. ما هذا الدلع هلّا كبرت أيتها الطفلة؟!

مرتمية على كتفه في ودَاعةٍ، وحبور بعد أن أتعبتها الدموع. تبتسم في دلع ظاهر بعد دموع بدأت في الجفاف.

تدمع عينا رفيق لهذا المنظر المؤثر إلى حدّ البكاء.

لكنها تنزع نفسها منه مرة أخرى قائلة:

- إن هو إلّا إشفاق على حالتي، فأنا العمياء التي ستتفضل عليها بالزواج رحمة بها!

لا يجيبها. لكن تدور عيناه بالغرفة، فيجد مصحفًا موضوعًا على مكتب صغير، فيحضره ويضع كفه عليه. ويمسك بكفها ويضعه على قلبه؛ ليكون قلبه شاهدًا على ما يريد:

- والله العظيم. والله العظيم. والله العظيم. أنا أحبك وأريد أن أتزوجك. وسأحبك حتى آخر نَفَسٍ في حياتي.

تبتسم من بين دموعها. فيمسح تلك الدموع، ويقبلها على وجنتها لأول مرة منذ لقيها.

تفرح فرحًا غامرًا بتلك القبلة. وتضع يدها عليها خوفًا من أن تطير من بين يديها، كأنها فراشة زاهية الألوان ستعيش ليوم واحد!

تقول بغير تردد ولا وجل. ممتلئة أملًا بعد يأس فائت:

- وأنا موافقة. ابحث عن مأذون في الصباح؛ ليزوجني منك!

- ولماذا في الصباح. والله العظيم سوف أتزوجك الآن! لقد كَبُرَ الموضوع في رأسي. ولن أنام إلَّا وأنت بجواري في سرير واحد!على فكرة ستتزوجين من صعيدي "مخه ناشف".

يخرج من الغرفة باحثًا زاعقًا على الشيخ علي.

- يا حاج علي. يا حاج علي.

يخرج الشيخ علي من القاعة.

- خيرًا يا ولدي؟

- هل هناك مأذون في هذه الساعة في البلد يكون صاحيًا.

- البلد لا تنام في الصيف يا ولدي. ولكن لمن المأذون؟

- لي أنا. سأتزوج سلمى الآن!

- الآن يا ولدي. الصباح رباح يا حبيبي!

- بل الآن. أنا صعيدي. وقد نقح عليّ العرق الصعيدي وسأتزوجها الآن. الآن!

- حاضر يا ولدي. معك بطاقة؟

- معي. في جيبي.

يخرجها من جيب بنطاله وهو سعيد أيَّما سعادة!

- ها هي. تفضل.

- يا ولدي. أنا مأذون البلدة، وشيخ الجامع الكبير.

- يا بركات الله. الله أكبر! أرأيت الفأل يا مولانا؟

- ليلة جميلة، وفيها بركة إن شاء الله.

يقول رفيق لابنة أخته:

- هل فكرتِ في هذا الأمر جيدًا يا سلمى؟

- يا خالي. أنا طوال عمري تعيسة، ورأيت الذل، والقهر، والضنك في حياتي. وقد أخبرتماني بأشياءَ لو ألقيتماها على جبل؛ لذاب وتفتت!

هل هو كثير عليّ أن أفرح بعد إحدى وعشرين سنة من الشقاء والعمى؟!

يحتضنها ويقبل رأسها، ويربت عليها في حنان بالغ.

- ألف مبروك يا حبيبة قلبي. أتمنى لك كل الخير والسعادة. وأتمنى أن أرى أولادك يتقافزون حولي.

- يا خالو أنت وكيلي في هذا الزواج.

تدمع عينه ويقبلها مرة أخرى على وجنتها:

- هذا شرف لي يا ابنتي.

- أنت أبي الحقيقي يا خالي. فلم أَرَ الذي مات. ولم أنعم بعطف أبي المزيف!

- شرف لي أن تكوني ابنتي يا حبة الروح ومقلة الفؤاد.

ولكن ستتزوجين دون فرح، أو كوشة، أو معازيم. هكذا "سُكِّيتي"!

- هكذا قدر الله يا خالي. وعندما تنجلي الغمة. أعدك أنني سوف أقيم فرحًا جميلًا.

يقوم الحاج علي المنوفي باستدعاء ولدين من أولاده، فيحضران من بيتين مجاورين. ويخبرهما بالأمر، فيشهدان على عقد الزواج الليلي المفاجئ. وتشق الزغاريد من النساء سكون الليل. فيتطلع الجيران من الشبابيك ويسألون عن الأمر. ويزغردون. بل وأكثر من ذلك تضاء الأنوار في الشارع كله؛ حيث يتطوع شباب الشارع بوضع إحدى السمَّاعات الضخمة، وتسهر البلدة حتى الفجر في أغاريد، وفرح لا يقطعه إلّا أذان الفجر، فيذهب الجميع إلى الصلاة في المسجد الكبير، وتذهب العروس مع النساء، ويدخلن إلى مسجد النساء، ويؤدي الجميع الصلاة شاكرين الله الواحد الذي تفضل عليهم بهذه النعمة.

بعد أداء الصلاة يعود الحاج علي إلى البيت. ويقسم على بسام وسلمى أن يجعلا ليلة الدخلة في غرفة رشا التي تتطوع بتزيين العروس، وتجهيزها في السادسة صباحًا حتى تتم الدخلة!

ثم تفتح لها حقائبها لتختار منها قميصًا تلبسه لزوجها في أول ليلة لهما معًا!

تبكي سلمى من هذا الكرم الحاتمي الأصيل لأسرة متوسطة من أسر الفلاحين الأصلاء. وتقسم عليها بأن تأخذ سوارًا ذهبيًّا أحضرته معها مع قطع أخرى أثناء هروبها من بيت نعمان.

تعاتبها رشا على أنها تعطيها ثمنًا لتجهيزها. وقميصها الذي أهدته إيَّاها. وتبكي!

تحتضنها سلمى، وتقول ودموع العرفان تترقرق من مقلتيها:

- يا رشا لقد عوَّضني الله بأخت وهي أنتِ. لقد عشت حياة صعبة، ولم أنعم بالسعادة كما عشتها بينكم الليلة. هل تستكثرين عليَّ أن أتخذك شقيقة لي وصديقة؟

تبكي رشا من الشجن الذي ملأها نحو هذه الفتاة المسكينة الهاربة من القتل. وتقسم أن تساعدها بكل جهدها على أن تنجو بحياتها من نعمان الذي أذاقها العذاب ألوانًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٠- الدخلة

بعد أن زيَّنتها رشا، وجمَّلتها لزوجها المحبوب. تتركها منفردة وحيدة منتظرة هذا الحبيب الجميل. نسيت كل ما بدر منه. نسيت أباها المزيف في تلك الساعة الصباحية الهنيئة. نسيت عذاباتها. ويأسها. وعماها!

إنها الآن مشتاقة إليه. مشتاقة أن يأخذها بين يديه الحانيتين. أن يلثم خدها الرقيق. أن يداعب خصلات شعرها الفاحم. أن ينعما بالحلال معًا، فهو الآن حليلها. وعشيقها، ومبتغاها من الدنيا.

يخبط خبطات رقيقة على الباب، فتقول في همس مسموع رقيق:

- ادخل.

يدخل، ثم يغلق الباب وراءه، وتمتلئ الغرفة برائحة عطرة أهداها له خالها رفيق. يلبس بيجامة حمراء زاهية. لا يدري لماذا هذا اللون الأحمر الزاهي الجميل الذي يلبسه الرجال جميعهم في ليالي دخلتهم؟!

تلك الرائحة المميزة تلفت انتباهها، فتنزوي على ركن من السرير. خجلى مبتسمة. حالمة. هائمة في هذا اللقاء المرتقب الحلال. يرتفع صدرها العاري ويهبط، حيث برزت رمانتنان جميلتان بضّتان من فتحة القميص الحريري الزهري الهفهاف والذي يتحرك بفعل المروحة الدائرة في السقف. شعرها المنسدل في روعة على كتفيها، والمضمَّخ بالعنبر النسائي الأخَّاذ ينفذ إلى خياشيمه، فتزداد رغبته اشتعالًا. يقول في نعومة ورقة تنفذ إلى أهداب قلبها ومسامع عقلها:

- صباح الخير يا جميل! "يقولها سعيدًا، طائرًا من الفرح".

ترد في خفرٍ وحياء بالغ:

- صصص صباح النور والورد.

يقترب منها ويمسك ذقنها، فيرفعه ليرى وجهًا ملائكيًا مستديرًا أتقنه الصانع الحكيم، فيسبِّحُهُ معجبًا خاضعًا لبديع صنعه:

- سبحان الله! يا ربِّ لك الحمد أن أهديت لي هذا الملاك الجميل.

تعلق في حياء:

- ليس لهذه الدرجة!

يسألها :

- هل أكلت؟

- ليس لي حاجة للطعام الآن. فلقد شبعت لما أصبحت حليلي وزوجي!

- يا سبحان الله! ما هذا العسل الذي يقطر من فمك. ويقترب منها ويقبلها على جبينها. فتتتابع أنفاسها الحرَّى، تكاد أن يُغمى عليها. قلبها لا يتحمل هذا الكلام ولا هذا الوجد والعشق الذي يبثُّه إيَّاها.

يقوم ليحضر شيئًا من على الطاولة، فتعجب لقومته تلك!

يحضر صينية ويكشف الشاش الموضوع عليها، فيجد حمامًا محشوًّا بالفريك، يفرك يده ويقول لها:

- رغم أني أكلت من القشطة والعسل في ساعة متأخرة ونعمت بالفطير المشلتت إلّا أني أحس بالجوع الآن.

- بالهناء والشفاء.

يأخذ حمامة ويقسمها نصفين، ويمد يده إليها ويعطيها في كفها نصفًا.

- ووو ولكني لست جائعة صدقني!

- إن لم تأكلي لن آكل. وسيكون ذنبي في رقبتك. وسيملؤني الزعل من حبيبتي التي لا تطيعني، وسأشكوك لخالك!

- وأنا لا أستطيع إغضابك يا حبيب عمري.

- ماذا؟! لم أسمع الجملة الأخيرة. قوليها مرة أخرى لو سمحتِ. الآن وفورًا!

تقولها، وتكررها مقربة شفتيها من أذنه متهدِّجة الأنفاس تحس حرارة غير مفهومة بجسدها كله:

- قلت: وأنا. لا. أستطيع. إغضابك. يا حبيب عمريييييييي!

ثم تقبِّل أذنَهُ في نعومة، وعذوبة، وغنج.

- ياااااااااااااااااااااااه . ما هذا النعيم يا ربي؟ ما هذا العسل؟ وما تلك القشطة التي تتجسد في هذه الفتاة!

تضع يدها على فمه تحاول أن تخفف من صوته العالي. حتى لا يسمع من بالخارج. يلتقم يدها بفمه ويلثم أصابعها واحدًا، فواحدًا. تسمع طرقعة القبلات، فتطرب وتطلب المزيد، بدلع:

- لا تكسفني يا بسام لو سمحت!

يقرِّب يده إلى فمها يضع في فيه بعضًا من الفريك المطبوخ بعناية. فتفتح فمها سعيدة فرحة. كأنها تركت الأرض، والتحفت بالسحب البيضاء الثلجية!

تأكل وتأكل كأنها لم تذق الطعام منذ شهر!

ينتهيان من الطعام. وتدخل للحمَّام الملحق بغرفة رشا. وتدعك أسنانها بمعجون برائحة النعناع كان موضوعًا على المرآة الصغيرة المثبتة على السيراميك اللامع.

تخرج في قميص زهريٍّ شفافٍ آخرَ جميل يُظهر لحبيبها تفاصيل جسدها الريّان. تأخذه الرغبة وتستثيره، فيسرع إليها حاملًا إيَّاها، واضعًا جسدها الغضّ. البضّ على السرير؛ ليطفئا متعتهما الحلال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢١- لقاء مع الأم الرؤوم

في الساعة الثانية بعد الظهر.. يقوم الزوجان من النوم..

يطبع بسام قبلة حانية على جبينها. فتصحو في نشوة. وتتمطّى ثم تتثاءب:

- صباح الخير يا حبيبي.

- صباح الهناء والسرور يا ملاكي.

- هل نمت هانئًا؟

- هل تصدقيني لو قلت لك إن هذا أول يوم منذ أسبوعين أنام فيه بهذه الراحة وذلك الكسل؟!

- يااااه!

- نعم والله. يبدو أن الزواج نعمة ربانية لم أكن أقدرها حق قدرها. يصمت قليلًا كأنه يتمتم بشيء. ثم يحمد الله بصوتٍ عالٍ. الحمد لله رب العالمين. يا رب أسألك دوام نعمك.

- الحمد لله. هيا يا كسول. لقد فاتتنا صلاة الظهر. واقترب العصر.

يدغدغها بأصابع رقيقة حانية، فتطلق ضحكات متتابعة، وتضع كفهاعلى فمها، حتى لا يسمع من بالخارج!

- بسسس هههههههه. بسسسسسسسام. كفى. كفى هههههههههه.

تنظر إليه متصنعة الجد. الآن هيا إلى الحمّام. هههههههههه.

يطيعها متثاقلًا، فتدفعه من ظهره ناحية الحمام. ويثبت قدميه بالأرض. فتخور قواها.

- يا بسااااااااام. وبعدين معك!

يلتف من ورائها، ويحيطها بذراعية مداعبًا خصرها، فتشعربإثارة وحرارة. وعرق يتصبب منها بسبب مقاومته.

يقتربان من الحمام، فيدفعها للداخل ويدخل معها.

تفتح "الدُّشّ" البارد. فيغرقهما الماء وتضع "الشاور" ذا الرائحة العطرة على شعره وينزلق على جسده وتحمّمه سعيدة فرحة. يتضاحكان ويلعبان معًا.

بعد الحمام تجفف له شعره. ثم تسرح شعرها أمامه ولا تفارقها الابتسامة.

يرتديان ملابس أحضرها لهما الشيخ علي وكانت موضوعة بترتيب ونظام على طاولة قريبة من باب الغرفة منذ الليلة الماضية التي شهدت عرسهما.

زادها الحمام نورًا وبهاء وبياضًا. إنها أجمل من أن تضع " مكياجًا" صباحيًّا.

يصليان الظهر معًا. في تقوى وحبور وخشوع.

خبط على الباب. يسرع بسام بفتحه ليجد زوجة الحاج علي تقدم له صينية بها الفطور. وتهنئه على الدخلة والصباحية وتتمنى لهما يومًا جميلًا، وسعادة دائمة.

يتناول منها الصينية شاكرًا ممتنًّا، ويجلس على الأرض بعد أن فتح المروحة التي كانت أغلقتها خوفًا عليه من لفحة برد تصيبه.

يدعوها للأكل. تتقدم في تؤدة وتخبط الصينية بقدمها. وتتأسف.

- لا عليك يا حبيبتي. اجلسي.

يمسك يدها لتستقر على الأرض. ويقسم رغيفًا ويغمسه في طبق به فول مع سمن مع بيض. ويطعمها في فمها. فتأكل ممتنة راضية.

يحادثها أثناء الأكل.

- تعرفين؟ أود أن أستدعي أهلي إلى هنا؛ كي ننعم معًا بهذه اللحظات السعيدة الجميلة.

- كم أتمنى يا بسام أن أرى أمك. أتحرق شوقًا لهذا اللقاء المرتقب. بعد أن ننهي الطعام أرجو أن تحادثهم في الهاتف؛ حتى يأتوا إلى هنا. أم نذهب نحن إليهم؟

- هذا فيه خطر كبير علينا وعليهم يا حبيبتي. ولكني أفكر في مناورة لاستدعائهم دون أن يلحظ ذلك أحد من أعدائنا!

- تقصد أبي نعمان. أقصد نعمان ومن معه؟

- أعرف أن ما عرفته عنه قد سبب صدمة لك. ولكنها الحقيقة التي حكيناها لك أنا وخالك في السيارة. نحن لم نتجنَّ عليه؛ فهو الذي فضح نفسه بنفسه!

- أفهم ما تقول. ولكن علينا أن نحذر أشد الحذر، فعامل الوقت ليس في صالحنا.

- بعد لقاء العائلة. سأذهب أنا وخالك رفيق للنائب العام، ونطلب مقابلته شخصيًّا، ولن نقنع بمندوب عنه. وسنضع كل ما عثرنا عليه أمامه، ونتقدم ببلاغ رسمي للقبض على نعمان وعصابته. ولكن.

- ولكن ماذا يا بسام؟ هل يقلقك شيء؟!

- لقد وضعنا أنفسنا في موقف لا نحسد عليه. تلك المافيا. لديها أيادٍ في كل ركن بالدولة . وليس هناك من حلٍّ سوى أن نستغل عامل. ونضرب ضربتنا قبل أن يفيقوا لما حدث لهم. وعلينا أن نغادر مصر بأسرع وقت. ونحصل على هويات جديدة ولا بُدَّ أن أخرج عائلتي معي حتى لا أفقد أحدًا منهم، فتلك العصابة لن تتسامح مع أعدائها الذين زلزلوا كيانهم!

- شوف يا بسام، أي إجراء ستقوم به أنا أوافقك عليه. فقد ارتبط مصير كل منا بالآخر. أنت زوجي الآن، وسأدعمك بكل ما أملك.

لقد أحضرت كروت البنوك التي بها أموالي. وعلينا أن نستغلها. والحمد لله لقد بلغت سن الرشد. وليس للكلب نعمان سلطان عليَّ الآن!

كما أني سأتصرف في الذهب، والمجوهرات التي أحضرتها معي من البيت. هي الآن موضوعة أمانة عند الحاج علي. أخذها خالي، وأعطاها له على سبيل الأمانة. وهو رجل صالح سيساعدنا.

توقف بسام عن الأكل فجأة، وشرد قليلًا.

سألته عمَّا يدور في عقله الآن. فقال لها بلهجة حاسمة:

- يا سلمى، إن مالك كله فيه الحلال والحرام. والأغلب أن الحرام قد طغى على الحلال!

- ماذا تعني يا بسام؟

- الأمر واضح. لن نستعين بمال حرام في وجهتنا. أو حربنا ضد هذا الكلب ومَنْ وراءه.

توافق على ما يقول. دون تردد، ثم تعقّب:

- وأنا أقسم لك بالله. أني سأتنازل عنه كله، ولا أريد منه شيئًا بعد الآن.

ولكن ماذا بخصوص الشيخ علي؟

- نعم والله. أنا لا أستطيع أن أوفي هذا الشيخ حقه من الثناء والشكر. يتعامل معنا كأننا من العائلة.

ينهيان حديثهما، ويغير بسام ملابسه، ويخرج لرفيق الذي كان يجلس مع الحاج علي. يلقي عليهما السلام. فيردَّان التحية.

- يا بسام ألف مبروك. لماذا تركت عروسك في الصباحية هكذا يا ولدي. هذا عيب لدينا!

- اعذرني يا حاج علي، فأنت تعلم أنني لديَّ مليون حاجة ورائي. ثم يوجه حديثه لرفيق:

- يا عم رفيق. أنا أخاف على أهلي، ولا بُدَّ من إحضارهم جميعًا إلى هنا بأسرع وقت!

- ولكن هذا صعب يا بسام!

يلتقط الحاج علي دفَّة الحديث قائلًا:

- ليس صعبًا؛ بل هيّنًا إن شاء الله. دع لي هذه المهمة يا بسام، وسترى ما يفرح قلبك.

- كيف ذلك يا حاج علي؟ أنا وضعت خطة في عقلي بحيث أقوم بمناورة تساعد في التعمية، فلا يشعر من يراقب أهلي أنهم آتون إلى هنا في المنوفية!

- أخبرني بخطتك. وأنا طوع بنانك. أنا وأولادي وأهل بيتي.

- شوف يا حاج علي ....

يشرح بسام الخطة بحذافيرها. ويستوعبها الحاج علي، ثم ينادي على أبنائه، فيعيد عليهم بسام تفاصيلها؛ حتى يحفظ كل واحد دوره، وينفذه دون ارتجال!

العاشرة ليلًا:

استغرق تنفيذ الخطة ستَّ ساعات كاملة. وقرع الأبناء الباب، ومعهم أسرة بسام، الأم ورقية وإحسان وجميلة. ومعهن الأطفال، وزوجا كلٍّ من رقية وإحسان. كان أبناء الحاج علي قد أفهموا كل فرد في تلك الأسرة السبب في الإتيان بهم على تلك الحالة. والمناورة التي سينفذونها للإفلات من أية مراقبة.

تعاون أهل البيت في إنزال الحقائب من السيارات.

سمع بسام جلبة في الشارع، فنظرمن النافذة ليجد أسرته كاملة تملأ المكان. تسارعت قدماه في النزول من على الدرج. مشتاقًا لأمه الرؤوم التي لم تَرَهُ منذ أسبوعين كاملين. وأخواته البنات والأطفال الصغار.

لما رآه هذا الجمع يخرج من البيت انطلقوا يعدون إلى احتضانه والاطمئنان عليه.

أما أمه، فبكت من هول المنظر، وانتظرت حتى التفت إليها، وجثا على ركبتيه وقبل يديها، ثم صعد إلى وجنتيها وجبهتها وحجابها يمطرها بوابل من القبل.

كل هذا والمرأة تعبِّر عن فرحتها بلقاء ولدها الوحيد الحبيب بالبكاء والصمت!

ثم تمالكت نفسها معاتبة ولدها:

- هكذا يا بسام لا أراك أسبوعين كاملين؟ وانقطع عني اتصالك، فلا كلمة تبلّ بها ريقي ولا لقاء يرد هذا القلب المشتاق إليك؟!

تتسابق دموعه قائلًا في شجن وشوق:

- اعذريني يا أمي، فعزائي أن أبناء الحاج علي قد أخبروك بما كنت فيه!

يأخذ يدها تحت إبطه، ويصحبها إلى الطابق الثاني حيث قاعة الاستقبال الرئيسية.

يتبعهم الجمع الحاشد، ويجلسون معهم.

يرحِّب الشيخ علي بالأم قائلًا:

- لا نستطيع وصف سعادتنا بحضوركم لبيتنا المتواضع يا أم بسام. أهلًا بكم جميعًا.

- ربنا يجعله عامرًا بحسك يا شيخ علي. والله جميع كلمات الشكر لا توفِّي كرمك، ولا تصف وقفتك مع ابني يا ابن الأصول.

- لا تقولي هذا الكلام يا أم بسام. فهذا واجبي، وأنا أعلم أن ابنك هذا البطل يقدم خدمة لبلادنا، ويناصر الضعفاء، والفقراء من أبناء هذا الشعب. ولولا هذا ما ساعدته.

يتجاذب الجميع أطراف الحديث. القاعة تحوَّلت لخلية نحل في طنين متصل لا يتوقف. تنسحب رشا في هدوء لاستدعاء سلمى التي كانت تجهز نفسها لهذا اللقاء المرتقب.

كان أولاد الحاج علي قد أخذ كل واحد منهم خطابًا موجَّهًا من بسام للأم والأختين المتزوجتين، وفور وصول الشباب لبيوت كل واحدة منهنّ سلموا تلك الخطابات الثلاثة التي ذُكِرَ فيها حدثٌ مهم في حياة بسام تعرفه كل واحدة من النسوة الثلاث.

حتى تطمئن لهؤلاء الزوار الغرباء الذين طرقوا عليهن الباب في أدب جمّ وهدوء وذكاء!

كانت الخطة تتلخَّص في اصطحاب الأم، وبناتها الثلاث، والزوجين والأطفال. والتوجه إلى محافظة مجاورة للمنوفية، والمكوث بها ساعتين على الأقل لتناول الغداء في أحد المطاعم الشهيرة. وكأنها رحلة جماعية صيفية. وبعدها يتوجه الجميع للمنوفية بعد أخذ الاحتياطات الكاملة، حيث تتفرق السيارات الثلاث، ويتم الدخول من مدخل مختلف للمحافظة المذكورة!

حيث تمَّ تشتيت الانتباه، ونجحت الخطة نجاحًا منقطع النظير.

خبطات متتابعة على الباب المفتوح يطلب الطارق الإذن بالدخول. فيأذن الحاج علي لمن على الباب:

- ادخلي يا رشا.

تدخل في هدوء مصطحبة معها سلمى واضعة حجابًا على رأسها متزينة بمكياج خفيف رقيق جميل، زادها بهاء ونورًا وكمالًا. لابسة ثوبًا برتقاليًا سابغًا قد كسا جميع بدنها وقارًا، وحشمة.

لم تنتظر أم بسام أن تأتي سلمى إليها؛ بل توجهت إليها فرحة بارَّة، ووضعت قبلات على وجنتيها الورديتين قائلة:

- أهلًا بك يا حبيبتي وزوجة حبيبي بسام. تدمع عيناها من الفرحة. وترد لها باسمة القبلات بأحرَّ منها. قائلة:

- أهلًا بك يا أمي. لقد حدَّثني عنك بسام كثيرًا، وأحببتك قبل أن أراكِ.

- ما شاء الله. ما شاء الله عرفت كيف تختار الزوجة الصالحة يا بسام. ربنا يبارك لك فيها يا حبيبي.

ينظر الجميع في صمت لهذا المشهد المهيب، ثم تتوجه البنات للسلام على زوجة الأخ. كلٌّ تقبِّلها، وتملِّي عينيها من هذا الملاك الجميل الرقيق!

- ينادي الحاج علي على أهل بيته:

- جهزوا قاعة الطعام يا أولاد!

ينقسم هذا الجمع قسمين. الرجال علي الأرض، وتم وضع " طبليات ألومنيوم" وتم تجهيز الطعام عليها. ولما ضاق المكان تم إعداد غرفة أخرى واسعة للنساء كي يطعمن فيها مع الأطفال.

طعم الجميع بين الابتسام والضحك، وكانت أمسية جميلة لم ينم فيها الجميع حتى الفجر رغم تعب السفر بين محافظتين. بينما ترك الأطفال الجميع، وناموا منهكين قد أثرت فيهم حرارة الجو.

يأمر الحاج علي أولاده الذكور بالتوجُّه للبيت الجديد واصطحاب الزوجين وعائلتيهما والمبيت هناك. مع ترك البيت للأسرتين "من بابه"!

وبعد الاستيقاظ من النوم في الحادية عشرة كان لبسام شأن آخر هو ورفيق!

يجتمع بسام وأمه وسلمى في الغرفة المخصصة للعروسين الجديدين. ويدور حديثهم حول الخروج من هذه الدائرة الجهنمية. تبدأ أم بسام الحديث في لهجة حازمة:

- ها. ماذا قررت يا بسام؟

- فيم يا أم بسام؟

- في الأخطار المحدقة بك أنت وسلمى. هل أنت متأكد من أنك خططت لكل شيء؟

- اطمئني يا أمي. على حسب علمي. لو كان نعمان عرف عنا أي شيء لبعث وراءنا من يجهز علينا جميعًا، فهو مجرم لا يتورع عن شيء.

- وبعد؟ يقولون إن لديك ما يدينه هو ومَن وراءه، فهل وضعت خطة معينة لتوقِّي جبروت هذا الفاجر؟

- نعم يا أمي. خلال الخيوط الأولى للصباح سأذهب إلى النائب العام، وأتقدم ببلاغ رسمي أطالب فيه بالقبض على نعمان، وعصابته لما فعلوه من تهديد للأمن القومي للبلاد، والتلاعب بقوت الشعب، ومحاولة قتل سلمى، واستيلائه على جزء كبير من أموالها والمضاربة به في البورصات العالمية. إن صحيفة الاتهام ستكون مثقلة!

تقول سلمى ويكاد يقتلها الرعب:

- ولكن يا بسام نحن نتحدى مافيا مجرمة لا تتورع عن فعل شيء. وأنا أخشى عليك. كما أني أخشى أن يطال إرهاب هذا المجرم جميع أفراد الأسرة!

- فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين .

- ونعم بالله؛ ولكن هذا لا يمنع من اتخاذ الحذر والحيطة.

تقطع الأم الحديث قائلة:

- شوف يا بسام، لقد أنجبتك بطلًا، ونذرتك لله، فأنت تدافع عن الحق، وتطالب به، إن هذه بلادنا، ولن نسمح للخونة والعملاء بأن يأخذوا خيرها وآثارها، وقوت فقرائها، وقد كان أبوك بطلًا في الجيش، وكان واحدًا من أولئك الذين تحدوا الصعاب؛ لكي يحقق ما يصبو إليه، فاثبت وكن رجلًا حتى النهاية، والله معك ويحرسك.

يسمع منها هذه العبارات المحفِّزة التي دفقت دماء الحماسة في عروقه. فيطمئنها:

- بإذن الله يا أمي سأكون عند حسن ظنك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٢- لقاء مع النائب العام

كان نعمان قد عاد للبيت صباحًا، ولم يجد سلمى في الفيلّا، وبحث عنها في جميع أرجائها ولم يعثر لها على أثر. اكتشف اختفاء ملابسها ومجوهراتها، وأموالها التي كانت تحتفظ بجزء يسير منها في رفٍّ صغير مغلق بقفل صغير!

هُرِعَ إلى الخزينة السحرية الحائطية، اكتشف الكارثة. أفاق من سكرته قليلًا، وحاول استجماع أفكاره، أجرى بعض الاتصالات؛ لكنْ توعَّده الجميع بالقتل إن لم يجد حلًّا لتلك المصيبة!

كانت عناية الله ترعى بسامًا، وزوجته وأسرته الصغيرة. وأفشلت كل مسعى لتتبُّعهم!

كأن الله قد أعمى أبصار هؤلاء الخونة؛ رأفة ورحمة بالفقراء الذين عانوا، ويعانون الفقر والذل، والحرمان بسبب جشع، وطمع تلك الثلَّة الآثمة المجرمة!

يتوجّه كلٌّ من بسام ورفيق بما معهما من أدلة وصور، وأفلام على الهواتف. إلى النائب العام. وطلبوا مقابلته لأمر مهمٍّ، ولا يحتمل تأجيلًا.

كان يصحبهما في إحدى السيارات أحد أبناء الحاج علي.

بينما تراقبهم سيارة أخرى من بعيد يجلس فيها اثنان من أبناء الشيخ البطل المعوان الصدوق.

دخلا في قاعة الانتظار يملؤهما الترقب. وتنبض في عروقهما الحماسة.

مكثا ربع ساعة حتى فرغ النائب العام من اجتماعه. وفُتِحَ الباب، وأتى إليهم مدير مكتبه ليستدعيهما للمقابلة. يدخلان في ترقب وحذر، ويستقبلهما النائب العام بنفسه مرحّبًا مبتسمًا. ثم يطلب لهما مشروبًا مثلجًا؛ كي يخفف عنهما رهبة الموقف!

بعد فترة صمت غير طويلة يسأل:

- خيرًا إن شاء الله. ما الخدمة التي تريدان مني أن أقدمها لكما؟!

يجيب رفيق في هدوء، ورزانة:

- سيادة المستشار المحترم، لقد أتينا لك بقضية الموسم، وسوف تقلب الدنيا على المفسدين الذين يريدون تجريد هذا البلد من كل مقومات وجوده. ولكن نطالب سيادتكم بتأمين خروجنا من مصر، أو حتى توفير الحماية لنا ولعوائلنا. وهذا شرطنا حتى نتكلم!

يتعجب المستشار، وينصت باهتمام بالغ بعد أن يقول:

- كل ما تطلبه سيكون مجابًا؛ ولكن عليّ أوّلًا الاستماع لهذا البلاغ. وأنا سوف أقرر مدى خطورته من عدمها! تفضل بالحديث.

يدع رفيق المجال لبسام الذي جمع خيوط القضية كلها. فيبدأ الحديث قائلًا:

- سيدي المستشار. سأبدأ الموضوع بلا مقدمات؛ حرصًا منا على وقت سيادتكم.

يضغط المستشار على زرٍّ على طرف مكتبه، فتضيء لمبة حمراء. تعني أن المستشار مشغول، ولا يريد إزعاجًا، أو مقابلاتٍ من أي نوع!

يستأنف بسام الحديث:

- سيدي المستشار، توجد عصابة يرأسها مجموعة من كبار القوم هنا في مصر، يشكلون مافيا لنهب الأراضي. وتسهيل الاستيلاء على المال العام دون سند من القانون، فهم يتاجرون في اللحوم الفاسدة وغش الأغذية، ويقومون بتهريب الآثار! ولم يكتفوا بذلك؛ بل إنهم يتاجرون في السلاح، ويقومون بدعم الميليشيات المتحاربة في بعض الدول، ويهربون السلاح إلى البلدان المجاورة! ويبغون من ذلك كله إطالة أمد الصراع، والحروب الأهلية في البلدان العربية من حولنا، إنها قضية مهمَّة جِدًّا سيدي المستشار.

يستمع المستشار إلى ذلك البلاغ دون تعليق. ودون أي تعبير على وجهه. ويسأل بسامًا أن يكمل. وأنه لن يقاطعه حتى النهاية.

- سيدي، سوف أعرض عليك ما جمعناه من أدلة وبراهين على تلك الاتهامات الثابتة على المتهمين. أدلة تتمثل في المستندات، والأوراق ومذكرات لأحد أفراد تلك المافيا، تثبت بما لا يدع مجالًا للشك غرقهم حتى النخاع في تلك الجرائم!

يفتح بسَّام إحدى الحقائب التي أحضرها معه رفيق. ويخرج المستندات والأدلة والأجندة وبها جميع الأسماء والعناوين، والاعتراف الصريح بمحاولة قتل سلمى!

دام الاجتماع ساعتين كاملتين. ونادرًا ما يمكث النائب العام كل هذه المدة في اجتماع ما!

بعدها يصدر النائب العام قراراتٍ بالتحفظ على مجموعة من الكبار. مع مخاطبة البرلمان بتأييد هذا القرار تمهيدًا لرفع الحصانة عنهم. كما أصدر قرارات بالقبض على الأشخاص الذين ورد ذكرهم بالأوراق والمستندات.

كما أصدر النائب العام قرارًا بمخاطبة الدول التي تورَّط بعض رعاياها في تلك الجرائم لاتِّخاذ قرارها بمحاسبتهم طبقًا للقانون.

وخاطب النائب العام الأجهزة المختصة لحماية العوائل التي اشتركت في كشف هؤلاء السفلة!

ولم يكتفِ بذلك؛ بل إنه خاطب "الجهات المعنية". لمساندة تلك العوائل وحماية ذويهم رجالًا ونساء وأطفالًا.

وتتابعت الأحداث سراعًا، فانعقد اجتماعٌ أخيرٌ ضمّ كثيرًا من أعضاء تلك المافيا، في إحدى الفيلَّات في جبل المقطم. لكنَّ حدثًا مدويًّا قد عطَّل انعقاد الاجتماع بعد أن اكتمل عدد الآثمين، حيث انفجرت ثلاث قنابل في المبنى، وأحالته إلى تراب، ودخان أسود كثيف، وغطت الدماء والأشلاء المكان. واهتزت المنطقة المحيطة على أثر الانفجار.

كان من بين القتلى نعمان، حيث عاقبه الله عقابًا دنيويًّا. وكان أخذ الله الأليم الشديد، قد قضى على كل أحلام هذا الساديِّ الفاجر المعتدي!

ترامت أخبار هذا الانفجار في أنحاء مصر. وهُرِعَتِ المحطات الفضائية؛ لتنقل هذا الحدث الجلل. الذي هزَّ ربوع مصر من أدناها إلى أقصاها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٣- ألمانيا

في مقاطعة "هامبورج" الألمانية، يسكن الآن بسام مع زوجته سلمى بعد أن أنجبا بنتًا وولدًا توءمًا، يحملان الأعين الخضراء نفسها. والجمال نفسه.

يعمل بسام الآن بمحطة فضائية ألمانية في برنامج موجَّه باللغة العربية لأهل مصر.

بينما سلمى قد التحقت بوزارة التعليم الألمانية للتدريس لذوي الاحتياجات الخاصة.

وكانت سلمى قد تنازلت عن الأموال التي بحوزتها؛ لأنها أموال حرام. فلم تشأ أن ينبت لحم ابنيها من هذا الحرام.

رفيق قرر أخيرًا الزواج من إحدى الألمانيات الفاتنات. عيناها الخضراوان، وشعرها الأصفر الطويل المنسدل على كتفيها في ثورة عارمة، وجسدها الغض الأبيض. كل هذا سحره. وانتزع قلبه من مكانه. وصمم على الفوز بهذه الأربعينية الملائكية!

تم نقل عائلة بسام (الأم والأخوات البنات، والزوجان والأطفال) إلى إحدى محافظات الصعيد في مبنى مملوك للحكومة.

الشيخ على وعائلته رفضوا الخروج من بلدته التي ولد بها ونشأ على ترابها. والتزمت الدولة بتوفير الأمن له ولأهله وعائلته؛ عرفانًا بالدور البطولي الذي قام به هو وأولاده.

يقبع عددٌ من المتورطين في تلك الفضيحة في السجون لقضاء عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة للتلاعب بقوت الشعب. وتسهيل الاستيلاء على المال العام. وتهديد الأمن القومي للبلاد.

....

∞ ∞ ∞ ∞ ∞(

تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20/ 10/ 2018م

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القناة

الفهرس..

عن الرواية..
عن الرواية..
الإهداء:
كلمات خالدة
١-العمياء الحزينة أبدًا
٢- ليلةٌ مرْهِقَة
٣- عينان
٤- صحفي مشاغب!
٥- نعمان الكومي
٧- نشوة المنتصر
٨- اللقاء الأول
٩- انفراجة
١٠- اجتماعٌ ثلاثيٌّ
١١- في السيارة
١٣- لحظات مُختَلَسة
١٤- لقاءٌ صباحِيٌّ بلون الورد
١٥- الصفعة!
١٦- مفاجأة
١٧- لقاء الحقيقة

١٨- يومٌ عاصِفٌ
١٩-المنوفية
٢٠- الدخلة
٢١- لقاء مع الأم الرؤوم
٢٢- لقاء مع النائب العام
٢٣- ألمانيا

Notes

[←1]

١-البيت للحسين بن منصور الحلَّاج.